عبير
روايات رومانسية عالمية



كاي ثورب

يدان ترتجفان

يدان ترتجفان
ثورب

عبير
روايات رومانسية عالمية

يدان ترتجفان

الحب لا
يهتم بالوقت أو المكان يحضر
عندما لا نتوقعه. والحب يمكن أن يسبب ألماً
بقدر ما يسبب سعادة.. هناك من يفقد صوابه.. وهناك
من يحلق في الأحلام ويطير على أجنحة الحب، وينسلخ عن
الماديات. وهناك من يتشتت ذهنه فلا تستطيع أن تطلق كلمة
طيش على الحب! فاليسيا اختارت الماضي وحلقت في عالم التحف
القديمة. ونسيت الحاضر وجماله وسحره... ولكن فجأة بدأ ذهنها يتشتت
ويداها ترتجفان... ولم تدرك مشاعرها إلا حين مزق قلبها بخفقانه
المتلوع لكن. هناك موبا الجميلة المدللة، والتي تستطيع أن تجعل برانت
القاسي يضحك من أعماق قلبه. فأين فاليسيا من عالم برانت، وهو رب
العمل الذي ربطها بعقد غير قابل للفسخ... كيف تستطيع دفن
مشاعرها بين التحف واللوحات والقصر البارد الكبير؟ أهل
تقنع برانت بخداع موبا له وبأنها تحب شاباً آخر
وتخرج معه... أم تهرب وليحصل لهم ما
يحصل!

مكتبة زهران
جمهورية مصر العربية
شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر

بلا عنوان

#

كاي ثورب

يدان ترتجفان

هارلكوين (قبرص) المحدودة
نيقوسيا - قبرص

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
THE LAST OF THE MALLORY'S

المراسلات:
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

بلا عنوان

١ - خطوة في المجهول

«السيد مالوري مشغول هذه اللحظة، وسيتصل بنا حالما يكون جاهزاً، بانتظار ذلك ارجو يا آنستي ان تتفضلي بالجلوس».

هذا ما قاله موظف الاستقبال.

شكرته فانيسا وسارت ببطء في القاعة المفروشة بالسجاد نحو المقعد حيث اشار الموظف. شعرت بتوتر وتمنت ان لا تنتظر طويلاً. التأخير يضرها ويعطيها وقتاً للتفكير في عدم كفاءتها للوظيفة التي تمنتها كثيراً، ويؤكد من احتمال كونها تسعى الى المستحيل.

فتحت حقيبة يدها وسحبت منها قصاصة جريدة. قرأت، ربما للمرة العشرين، الخبر المنشور. لم تكن تحتاج الى التذكر، بل الى اشغال نفسها في أي شيء اثناء الانتظار.

بلا عنوان

«مطلوب للعمل سكرتير خاص لمدة ستة اشهر على الأقل. الوظيفة مع الاقامة في رالينغز هول، في بلدة دربيشايد. على مقدم الطلب، اضافة الى مؤهلات السكريتاريا، ان يكون ذا اطلاع واسع في شؤون التحف الاثرية القديمة. الراتب يتفق عليه. والسيد ب. مالوري سيجري المقابلات يوم الاثنين ١٢ ايلول (سبتمبر) من الثانية حتى الرابعة بعد الظهر في فندق بارك».

وفكرت فانيسا ان الخبر دقيق جداً، وان الكاتب ليس شخصاً يهدر الكلمات التي لا معنى لها. تنهدت واعادت القصاصة الى حقيبتها. تمنت ان تكون الوحيدة. بالطبع آخرون سيجدون العرض مغرياً للعمل والعيش مع اشياء تاريخية تعود الى اكثر من اربعمئة سنة، ومع احد اهم جامعي التحف في اوروبا. فرصة لا تسنح الا مرة واحدة في العمر لشخص مثلها يهوى التحف.

فكرت ان عمرها ربما يكون عاملاً في غير مصلحتها. فهي لم تتجاوز الثانية والعشرين، وهذه السنوات ليست كافية لتحمل مسؤولية من النوع الذي تطمح اليه. اخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها وحدقت فيها بعين ناقدة. مسحت طرف انفها من غبار عالق، وتمنت لو انها ارتدت فستاناً داكن اللون غير الفستان الزهري الذي لبسته. انه افضل ما لديها، الا ان انعكاسه مع بريق شعرها البرونزي، قد يعطي انطباعاً بانها مستهترة وهو عكس ما ترغب في اظهاره تماماً.

نادى موظف الاستقبال مقترباً منها:

«آنسة بيدج السيد مالوري متفرغ الآن ويستطيع ان يراك. رقم غرفته خمسة في الطابق الاول».

في المصعد شعرت فانيسا انها ذاهبة في مهمة صعبة. وفكرت، لو استمرت تشعر بالفشل سلفاً قبل ان تتم المقابلة فانها ستفشل

حزّ... حينها كان دائماً يقول: فكري في ترفع ولا تستخفي ابداً بزملائك، ووجدت نفسها تجهد من اجل تطبيق هذه النصيحة.

كانت الغرفة رقم خمسة في منتصف الممر الطويل المفروش بالموكيت. قرعت فانيسا الباب وسمعت صوت رجل خشن يدعوها للدخول. سحبت نفساً طويلاً ودخلت لتجد نفسها في غرفة جلوس ومكتب، الغرفة حلوة الاثاث، تسبح في دفء شمس الظهيرة المتسرب من النافذة الواسعة. والرجل الواقف الى جانب النافذة لم يدر وجهه نحوها بل تابع النظر الى الطريق. وجدته طويلاً، عريض المنكبين، اسود الشعر، ويلبس بزة رمادية انيقة. قال من دون ان يلتفت الى الوراء:

«انظر الى الاناء الاثري الموجود على المكتب، من فضلك، واخبرني عنه».

تحركت فانيسا الى الامام ووضعت حقيبة يدها جانباً، وتناولت الاناء عن المكتب. وجدته قطعة بسيطة من البورسلين الرقيق تزينها ازهار زرقاء على الاطراف. قطعة جميلة في حالة ممتازة. الاهتمام ازال توترها. ودفء الاناء النسبي واللمس المخملي جعلاها تعتقد ان البورسلين من الطين الناعم. قلبت الاناء لتدقق في علامة المصنع المميزة، وجدتها تكاد تمحى ولكن قراءتها ممكنة: رسم للشمس واحرف «اس. تي. سي». وفي الأسفل حرف «ي». كل ذلك لم يكن كافياً لاثبات القيمة الاثرية للاناء. فالقطع المزورة دائماً تحمل اختاماً. دققت في الاناء من دون ان تلغي احتمال وجود خدعة. اذا كان الاناء مزوراً فإن صانعه ممتاز اذ جعله يطابق المواصفات القديمة. والوقت المتوفر للاجابة قصير كما ان كشف التزوير يحتاج الى وقت اطول. ومع ذلك لم تظن ان الاناء مزور، فحدسها ابلغها ان القطعة اصيلة.

«الاتاه من فرنسا».

قالت وتوقفت عن المتابعة عندما استدار الرجل نحوها بسرعة ونظر اليها بحدة. وفي لحظة الصمت هذه وجدت في عينيه الزرقاوين ووجهه الأسمر ان الرجل من النوع الذي لا يقبل المساومة. لم تفهم سبب انزعاجه المفاجيء.

«اعتذر».

قال اخيراً واضاف:

«يبدو ان ثمة سوء تفاهم. كنت اتوقع شخصاً اسمه السيد بيدج يطلب المقابلة».

«آه لكن موظف الاستقبال كان واضحاً جداً عندما انباك بوجودي».

«ربما، ولكن اعتذر لان سوء التفاهم جعلك تنتظرين من دون فائدة. الوظيفة هي لسكرتير رجل وليست لفتاة».

«آه، ولكن الاعلان في الجريدة لا يقول ذلك صراحة».

«ربما، غير انني اعتبرت ان رجلاً فقط يمكن ان يتقدم الى وظيفة تتضمن اقامة داخل بيت».

«نعم، ولكن لا اظن ان فكرة الاقامة تردع امرأة من ان تطلب الوظيفة».

«آسف، فالموضوع غير قابل للنقاش... آسف ثانية لأني اضعت وقتك».

شعرت فانيسا بغضب الخيبة ووجدت نفسها تقول له:

«هل انت عدو للمرأة بشكل عام ام في هذا المجال فقط؟ اذا كان الأمر الأخير فاظن ان اللياقة تقضي بأن تحكم علي من خلال مؤهلاتي وليس من خلال كوني امرأة».

رفع حاجبيه متعجباً من جرأتها، ملاحظاً جبهتها العريضة

بعينيه الخضراوين وقفتها المشدودة، وقال بقوة:

«ألا ترين معي ان الاستمرار في الحوار يهدر وقتك ووقتي؟».

«لم ار احداً غيري ينتظر».

«انت فتاة لجوجة. اذا كان يهمك ان ترى مؤهلاتك، لا بأس في ذلك. ارجو ان تجلسي وتخبريني عن الاناء. هل انه فرنسي الصنع؟».

«نعم».

قالت باصرار وتابعت بصوت واثق:

«الاناء من صنع سانت كلاود، تاريخه يعود الى اواسط القرن الثامن عشر وبالطبع لا يتجاوز كثيراً العام ١٧٧٠».

«لماذا؟».

سأل بلا مبالاة.

«لأن حرف «ت» اضيف عندما اصبح هنري تروو رئيساً للمصنع في العام ١٧٢٢. والمصنع احترق في العام ١٧٧٣ ولم يرمم بعدها ابداً».

وجدته صامتاً وبعينيه الزرقاوين ينظر اليها في خط مستقيم. شعرت بارتباك والاحرار يملأ وجنتيها.

قال من دون ان يزيل نظره عن وجهها:

«صحيح واعجبتني الطريقة التي عرضت بها افكارك. ان الدقة والايجاز يندر ان يلتقيا خصوصاً عند امرأة».

شعرت ثانية انه يغيظها. وقررت تجاهل ما قاله. فالحواجز ربما تضاءلت بينها اذا تمكنت من التأثير عليه. ولكن قناعتها بمؤهلاتها لم تؤكد لها موافقة الشخص الآخر. فالرجل امامها لا يبدو من النوع الذي يغير رأيه بسرعة ربما في موافقته على اجراء المقابلة قصد المسايرة او التسلية من دون ادنى فكرة جدية نحو توظيفها.

تحرك من جانب النافذة حيث كان يتكىء وجلس على الكرسي خلف المكتب وسحب من داخل حقيبة عمل رزمة صور ووضعها امامها قائلاً:

«اخبريني عن مواضيع هذه الصور. الطراز، الفترة التاريخية، واعطني وصفاً مختصراً لكل موضوع».

خلال ربع ساعة شعرت فانيسا وكأنها وضعت داخل مفرمة. انه لم يقل شيئاً ولكن ابتسامته الساخرة، ان اخطأت، جعلتها تهيب الموقف. ركزت ذهنها على الصور امامها وافرغت كل ما تملكه من معلومات حتى كادت تقارب حد الاعياء. واخيراً قال:

«حسناً، يجب ان اهنئك على كمية المعلومات لديك. عندك عين ثاقبة للتفاصيل. اين تعلمت كل هذا؟».

افرحتها ملاحظته فقالت:

«جدي رباني منذ كان عمري عشر سنوات. كان يملك دكان تحف في تشلسي ويسمح لي بمساعدته في التنظيف والتلميع. هكذا بدأ اهتمامي الاول بالتحف، ثم صار جدي يأخذني الى حفلات المزاد العلني والمتاحف حيث علمني كيف انظر الى التحف المهمة. وانا محظوظة لاني املك ذاكرة جيدة واظنها مفيدة في هذا المجال».

«نعم هي كذلك. ولكن اظن انك توافقين معي ان القدرة على حفظ الاشياء ليست بديلة للخبرة العملية في مسك التحف وفحصها. انت محظوظة للفرصة التي وفرها لك جدك اذ كان حاضراً وراغباً في تمرير معلوماته اليك. هل جدك هو جوزيف بيدج؟».

«نعم. هل كنت تعرفه؟».

«معرفة سطحية. اشتريت مرة من عنده مسدسي مبارزة الريين، ربما قبل ثلاث سنوات، وجدته يتحدث وعلى وجهه ابتسامة جذابة جعلته يبدو اصغر سناً. قدرت عمره بين ثلاث وثلاثين سنة واربع

يبدو ان جدك شخص استثنائي. اذكر اني تغلبت كثيراً معه قبل ان يعدل في السعر. كان اهتمامه ينصب على نيتي من وراء شراء التحفتين الاثريتين.

«نعم هكذا جدي. كان يجب ان يتأكد من ان الشاري سيأخذ التحف من عنده الى بيت لائق. ويقول إن كل قطعة يجب ان تؤخذ الى ظل التبني».

«للأسف هذه العناية لم تعد موجودة في ايامنا الحاضرة. في كل حال انا افهم مشاعر جدك».

حدّق فيها قليلاً ثم اضاف:

«لا اذكر اني رأيتك في الدكان».

«ربما كنت في احد اماكن شراء التحف المخفضة. في السنتين الاخيرتين كنت اتولى الشراء».

«انت تستعملين كثيراً صيغة الماضي. هل افهم من كلامك ان جدك تخلى عن مهنته؟».

«بل مات قبل ثلاثة اشهر».

شعرت أنها حزينة. ولكن الشخص الآخر لم يردد كلمات تعزية غالباً ما تكون فارغة، بل تساءل:

«وانت لم تشعري انك قادرة على ادارة الدكان وحدك؟».

«ليت ذلك كان صحيحاً».

قالت ذلك وهي تنظر عبر النافذة مسترجعة الاسابيع التي تبعت وفاة جدها، والصدمة التي عانت منها. فقالت وكأنها تحدث نفسها:

«لم يكن تاجراً. كان يقبل ان يبيع مع خسارة اذا علم ان الشاري مثله مغرم بالاشياء القديمة، حتى ولو لم يكن قادراً على دفع القيمة الحقيقية للقطعة المختارة. كنت اعلم انه واقع تحت عجز مالي يستمر في ادارة الدكان. ولكن ماذا يمكنني ان اقول؟ كان يفضل

الهواية على الاحتراف وكان سعيداً».

«اذن لجأتم الى تصفية الدكان. وماذا فعلتم منذ ذلك الوقت؟».

«لا شيء. انتهى البيع قبل اسبوعين والمالك الجديد طلب مني ان ابقى في الشقة مقابل مساعدته في الدكان».

بعد صمت قصير سألها:

«وماذا عن خبرتك في شؤون السكريتاريا؟».

«ليست جيدة. درست فترة قصيرة في مدرسة ليلية الطباعة على الآلة الكاتبة والقليل من مسك الدفاتر».

«باختصار، انت لا تملكين خبرة كافية».

قال ذلك وهو يقف ويسير نحو النافذة وينظر عبرها الى الطريق المزدحمة. وضع يديه في جيبه من دون ان تظهر عليه اشارات سلبية او ايجابية. فانيسا راقبته ولم تتجرأ على التمني. هل يفكر في طريقة مهذبة يبرر لها رفضه توظيفها؟ كانت شبه واثقة انها تمكنت من اقناعه بقدراتها لولا التفاصيل عن شؤون السكريتاريا. فكرت ان رجلاً مثله لن يجد صعوبة في لفظ كلمة رافضة خصوصاً انه سبق ان قال انها تهدر وقتها ووقته. اذن بماذا يفكر؟

التفت اليها بسرعة وكأنه شعر بتحديقها. بدا انه اتخذ قراراً بشأنها. فقال اخيراً:

«آنسة بيدج، انا لن ادور حول الموضوع، سأقول رأيي بصراحة. رأيي في النساء انهن لا يصلحن للعمل. دائماً مشتتات الذهن، يعتمدن على الحدس اكثر من المنطق. ويرفضن اي نوع من الوصاية».

شعرت فانيسا انها مطعونة. وقفت بعصبية ظاهرة وقالت وهي تشعر ان الشرر يقدح في عينيها:

«اذن ليس هناك ما اضيفه، آسفة لأني اضعت وقتك».

همت بالخروج وإذا به يقول بلهجة آمرة:

«اجلسي».

لم يرفع صوته ولكن شعرت ان عليها اطاعته.

«وانت حساسة اكثر من اللازم».

قال ذلك محاولاً المزاح واضاف:

«انا لا احتاج الى موظفين يتمزقون عند اول كلمة نقد».

«ما قلته لم يكن كلمة نقد. كان هجوماً صارخاً. انا لم احضر هنا لاستمع محاضرة عن نواقص بنات حواء. جئت من اجل وظيفة تبدو انها بعيدة جداً عني. هل يمكن ان اذهب الآن؟».

«من قال إن الوظيفة بعيدة عنك؟ انا اردت فقط ان ابدأ بقول شروطها الاساسية كي لا نقع في سوء تفاهم في المستقبل. هذا كل شيء. واكرر ما قلته سابقاً واضيف اني لم اكن اتوقع امرأة للوظيفة ولكن يبدو انك الوحيدة من الذين تقدموا بطلبات توظيف تلائم عرضي. ان نواقص مؤهلاتك في السكرتاريا لا تقلقني فانت ستعتمدين على مواهبك الاخرى وستكتسبين النطق مع الوقت. انا افضل دائماً تدوين ما ارغب في املائه».

«وهل قبلت بي موظفة عندك؟».

«اليس هذا ما جئت من اجله؟ ام انك غيرت رأيك؟».

هزت رأسها بالنفي فقال:

«ثمة ملاحظة اريد ان تكون واضحة قبل الاتفاق على اي شيء آخر. ان الوظيفة لن تكون كعادة الوظائف في الدوام من التاسعة صباحاً حتى الخامسة بعد الظهر. ان رالينغز هول مفتوح للجمهور خلال الربيع والصيف. وقبل ان يبدأ الموسم المقبل اريد انهاء الفهرسة في التحف الموجودة بالمواضيع المختلفة. اتوقع منك العمل في كل الاوقات غير العادية وذلك حسبما اكون متفرغاً. فانا اخير

مقلعاً للحجارة يأخذ معظم وقتي خلال الاسبوع. واظن ان اكثر العمل يمكنك القيام به وحدك. ولكن انبهك ان العمل قد يكون متعباً وقاسياً ويأخذ الكثير من وقتك. اذا كنت تخافين من ضغط العمل انصحك برفض الوظيفة التي اعرضها عليك. هل ما زلت راغبة؟».

تجاهلت فانيسا الشكوك التي طرحها واكدت:

«طبعاً ما زلت راغبة في العمل».

«حسناً لننتقل الى صلب الموضوع. الراتب. . .».

وطرح مبلغاً اعتبرته فانيسا اكثر مما كانت تتوقع ولم ترد بغير هز الرأس موافقة. فسألها:

«متى يمكنك ان تبدأي العمل؟».

«في اقرب وقت، لا شيء يمكن ان يبقيني في لندن».

«حسناً. الافضل ان نسرع في العمل».

جمع اوراقه والصور واشياءه الاخرى عن المكتب وقال:

«اقترح ان ننتقل الى الشمال يوم الاربعاء. هل يناسبك الموعد؟».

فكرت ان ذلك يعني بعد غد، وشعرت ان المجهول قريب جداً ومع ذلك اجابت:

«نعم يناسبني».

«حسناً. هذا كل شيء الآن».

نظر الى ساعته ثم اضاف:

«هل ستعودين الى المحل؟».

ردت بالايجاب. رفع سماعة الهاتف وقال لموظف الاستقبال:

«الآنسة بيدج تغادر الآن. ارجو ان تطلب لها سيارة تاكسي وتدخل الكلفة في حسابي».

نظر اليها مبتسماً وقال:

«لا يمكنك ان تعلقي في زحمة الركاب».

ثم وقف ماداً يده نحوها:

«في اللقاء يوم الاربعاء اذاً، آنسة بيلنج، ساجد لك موعداً مناسباً في القطار وارسل لك تذكرة مع رسالة تؤكد الاتفاق بيننا. سيكون من ينتظرك في محطة مدينة شيفيلد طبعاً».

وحينما همت بالخروج قال:

«هناك شيء نسيت ان اذكره. وهو اني سأطلب منك توقيع اتفاق عمل مع اقامة في رالينغز ستة اشهر كاملة. مقبول؟».

«اذا كنت تجد الأمر مناسباً».

خرجت من الغرفة وهي واثقة انه يتابع خطواتها بنظراته. وما ان اصبحت في الممر الخارجي حتى تنفست الصعداء. يا له من رجل متعجرف يثير الحنق!

كانت تشعر بانزعاج عندما ركبت سيارة التاكسي. وبعد ان استوت في مقعدها واعطت السائق العنوان الذي تقصده، ادركت ان سبب انزعاجها هو رب عملها الجديد. فكرت ان السيد ب. مالوري اثار فيها النفور. وهو شعور لم تعرفه من قبل. والنفور سيكون مع رجل وافقت على العمل معه والعيش قربه، انها ستراه كل يوم خلال الاشهر الستة المقبلة.

حدقت فانيسا في النافذة محاولة ان تعيد رسم ملامح الرجل الذي تركته قبل لحظات. انف بارز، فم قاسٍ، وفك مثلث. تكاد تراه بوضوح. وجه شخص يعرف تماماً ماذا يريد من الحياة ويبدو لها انه من النوع الذي يحصل على ما يريد. وفكرت، هل ستتمكن من التعامل مع رجل مثله؟ هل يمكن لأي شخص ان يتعامل معه؟ من جهة اخرى تساءلت، هل يهم شعورها نحو هذا الرجل؟ ان

علاقتها ستكون علاقة عمل بحتة. وتوقعت ان يكون لها جناح خاص في البيت الكبير يفترض فيها ان تلزمه خارج اوقات العمل. وحتى ربما تأكل هناك. وفكرت بأن العمل سيكون في المجال الذي احبته كثيراً وطالما حلمت به. من هذه الزاوية تساءلت: اين المشكلة؟

كانت الساعة نحو الخامسة عندما وصلت فانيسا الى الدكان. اجراس الباب استدعت رجلاً رمادي الشعر في اواخر الخمسين من عمره من الغرفة الداخلية في الدكان. انفرجت اساريره عندما رأى فانيسا داخل المحل.

«ان ابريق الشاي على النار. تعالي نجلس في الداخل. انا اعد الشاي وانت تخبريني ماذا فعلت. هل حصلت على الوظيفة؟».

«نعم».

قالت بثقة وتبعته الى الغرفة الداخلية التي بمثابة مكتب وغرفة جلوس وتابعت:

«حصلت على الوظيفة وسأسافر يوم الاربعاء».

«هكذا؟ هذا الرجل ما اسمه؟ يبدو انه على عجلة من امره. استغرب كيف لم ينشر اعلانه قبل الآن. هو محظوظ لأنه عثر على واحدة مثلك مستعدة للعمل فوراً».

«اسمه مالوري، وانا محظوظة لاني استطيع ان ابدأ في كسب معيشتي فوراً».

وضع نيفيل مورتن فناجين الشاي وصحن الكعك على الطاولة الصغيرة. وقال وهو يسكب الشاي:

«انت مضطرة للبحث عن عمل. انت تعرفين ذلك. انا قلت لك اني اكون اكثر من سعيد ان قبلت البقاء هنا والعمل معي. ستكون لك شقتك. وسنصل الى اتفاق ودي حول الراتب. الا

تفضلين البقاء حيث لك اصدقاء؟».
«انت صديق عزيز جداً».
وشعرت بمودة نحو الرجل اللطيف. كان قد حضر الى الدكان مستحيياً للاعلان الذي نشرته. ولانه عرف جدها واحترمه، وجلت بيع الدكان له امراً مريحاً. صحيح انها تتألم لتركها المكان الذي تحيي بها لسنوات ماضية. ولكن كان يجب ان تبتعد. لذلك اعتذرت عن قبول عرضه بالعمل والبقاء، وقالت له:
«شكراً لك يا نيفيل. ولكن لا اظن اني سأتمكن من البقاء هنا. فالمكان يعيد الي ذكريات كثيرة اليمة. واظن أن من المناسب ان ابدأ في مكان جديد حياة جديدة. الوظيفة الجديدة ستساعدني على هذه البداية خلال ستة اشهر. الراتب الذي اكون جمعته وبعض المال الذي بقي لي من بيع الدكان، ربما يساعداني على تأسيس عمل خاص بي. من يدري؟».
«حسناً. اراك صممت على ذلك. ارجو ان تتذكري دائماً انك اذا احتجت الى اي مساعدة سأكون دائماً حاضراً. الآن اخبريني عن المقابلة».
«كان ثمة سوء تفاهم منذ البداية. لانه يتوقع رجلاً للوظيفة».
واخبرته في ايجاز عما دار بينها وبين مالوري وفي النهاية اقرت:
«الآن عندما استعيد ماذا جرى بيننا لا اكاد اصدق كيف اصريت على اجراء المقابلة والاختبار. ولكن في تلك اللحظة شعرت ان لا شيء يهم بقدر اثبات اهليتي مثل اي رجل اخر يتقدم لوظيفة مماثلة».
«اصرارك كان مفيداً. والآن بعدما هدأت اعصابك يمكنك رؤية الاشياء بوضوح. هل تظنين انك سترتاحين في العمل مع هذا الرجل الذي يبدو لي صعباً؟».

كلمة «صعب» وجدتها قليلة على الرجل. ربما كلمة مستبد تناسبه اكثر.

«وقال ان اكثر العمل سأقوم به وحدي. اما في الأوقات التي سأضطر للعمل معه فسأحاول تقبل الازعاج. التعويض سيكون المكان حيث اعيش بما فيه من تحف، وهذا سيغطي على العلاقات الشخصية».

«امامك الكثير للتعلم يا فانيسا، اذ لا يمكنك تجاهل العلاقات الشخصية، ولا يمكنك ان تدفني نفسك في العمل حتى آخر حياتك».

في وقت لاحق، في الليل، عندما دخلت فانيسا فراشها فكرت بالعبارة الاخيرة التي قالها نيفيل. وتساءلت، ماذا عنى بكلامه؟ وعندما لم تجد تفسيراً، فكرت ان الامر ليس مهماً. المهم انه خلال ستة اشهر مقبلة مشاكلها ستكون محلولة.

خاطىء عن الرجل. فقد فعلت ذلك تحت تأثير كلام ابن عمته عنه، وبما ان الودّ مفقود بين الرجلين، فان الانطباع لا يكون في مصلحة برانت. لذلك عليها ان تبدأ من جديد. ان تحاول فهم الرجل الذي بدا لها انه خليط من الامزجة المتضاربة.

استرخت على كرسيها وجالت بنظرها حول الغرفة، ربما تكتشف شيئاً يساعد على حل ألغاز رب عملها. هذه الكتب مثلاً. وقفت وسارت نحوها. اختارت كتاباً من احد الرفوف. كان ديوان شعر. فتحت الصفحة الاولى وقرأت ما كتب بخط اليد، «الى برانت مع حبي. من امك». وفي الاسفل «ميلاد ١٩٥٦». كان الامر مفاجئاً لها. لم تتصور برانت من الاشخاص الذين يهتمون بالشعر. ومع ذلك يبدو الكتاب مستعملاً. رفعت نظرها نحو صورة الام فوق المدفأة، فشعرت ان العينين تسعيان للحوار وترجوان التفهم. وجدت تحليلها سخيفاً وفكرت ان عيون صور سلالة مالوري الموزعة في رالينغز تكاد تلاحقها.

سمعت طرقاً على الباب. ودخلت ايمي الى الغرفة. وبدت غير راضية على وجود فانيسا قرب الكتب الخاصة وصورة والدة برانت. وعندما تكلمت سألت:

«هل تريدين فنجان الشاي هنا يا آنسة اومع السيد ترنر في غرفة المكتبة؟ ان السيد مالوري ابلغني ان ابقي معك مفتاح خزانة الملفات الخاصة. اعتذر لاني انشغلت فنسيت ان اعطيك اياه باكراً».

مدّت يدها الى جيبها وسحبت منه المفتاح وناولته لفانيسا قائلة.

«والخزانة هي تلك الموجودة على اليمين في غرفة الاسلحة».

تناولت فانيسا المفتاح شاكرة وقالت:

. «واظن انه من المفيد ان اتمكن من الحصول على الاوراق التي احتاج اليها من دون ازعاجك كل مرة. اظن ان اعمالك كافية.

فهذا البيت يحتاج الى عمل مكثف لادارته».

«انت على حق. ومع ذلك فان السيد مالوري لا يقسو على العاملين هنا. هؤلاء يظنون انهم يمكنهم ان يقبضوا رواتبهم من دون ان يعملوا، عليّ ان الاحقهم باستمرار. لم يكن الوضع مماثلاً عندما بدأت العمل هنا، في ذلك الوقت كنا نعرف جيداً ماذا يعني العمل المرهق».

«نعم. ان ظروف العمل تحسنت الآن».

قالت فانيسا من دون ان تلاحظ ان جوابها يزعج ايمي، الا عندما اجابت:

«ان كلامك هو رأي فقط. فبعض العمل لا يضني مطلقاً. لكن ابناء اليوم يريدون كل شيء سهلاً».

هكذا انتهى الحوار وخرجت ايمي من الغرفة. وفكرت فانيسا انها بدأت تفهم عقلية ايمي وان عليها التفكير جيداً كلما قررت التحدث معها.

نورا ترنر كانت تعد فنجان الشاي عندما دخلت فانيسا غرفة المكتبة. فبادرتها:

«اهلاً بك. انا سعيدة لانك وافقت على شرب الشاي هنا. فالشاي يجب ان لا يشرب مع العمل».

وقدمت لها فنجاناً وجلستا تتبادلان اطراف الحديث.

«كيف يسير العمل معك؟ هل تجدين الاشياء معقدة؟».

«ليست معقدة الى الحد الذي توقعته. السيد مالوري شرح كل شيء تقريباً هذا الصباح».

واخرجت المفتاح الذي اعطتها اياه ايمي من جيبها وقالت:

«يجب ان اضعه في مكان امين. لا اظن ان ايمي ستكون سعيدة ان اضعت مفتاح خزانة الملفات الخاصة بعد دقائق من استلامي

اياه».

«كيف تمكنت من اقناع ابي بالتخلي عن احد اثمن مفاتيحها؟».

«لم اسألها ذلك. هي قالت ان السيد مالوري ابلغها ان تعطيني اياه. الم يكن كل سكرتير قبلي يحمل المفتاح؟».

«كلا، لم يقضوا وقتاً طويلاً في كل حال. اظن ان برانت تمكّن من حبسك عبر العقد الموقع بينكما».

ابتسمت فانيسا. ارتاحت لنورا ترنر ولطريقتها غير المعقدة في قول الاشياء.

«اظن اننا سنتفق تماماً يا فانيسا».

ثم سألتها من دون تمهيد:

«اخبريني، هل تجدين ابني جذاباً؟».

تذكرت فانيسا بان ابناء عائلة مالوري يتشابهون في عدّة اشياء. منها انهم احياناً يتصرفون او يقولون اشياء غير متوقعة. ووجدت فانيسا نفسها تجيب:

«اظن ان اكثر النساء يجدن جيرارد جذاباً».

قالت وهي لا تدري ماذا تتوقع منها ان تقول.

«صحيح. ولكن هل تصنفين نفسك بين تلك الاكثرية؟».

«لم افكر في الموضوع من قبل».

«ومنذ متى تحتاج المرأة الى التفكير ان جذبها رجل او لم يجذبها؟ فهي تشعر بالموضوع منذ اللحظة الاولى التي تلتقيه. ربما ترفض ان تعترف بذلك ولكنها تعرف ذلك حتماً».

«حسناً. انا اجد جيرارد جذاباً ورفقته مسلية».

«نعم. انا ايضاً اظن انه جذاب عندما يقرر ان يجذب احداهن. وارجو ان لا تستغربي ان قلت لك ان لا اوهام تنتابني حول ابني. هو جذاب فعلاً ولكن النساء عنده للتسلية فقط. البعض يقول انه ربما

تقصته تربية الوالد. ولكن غراهام مات عندما كان جيرارد في الثانية عشرة من عمره. ولكن حتى لو بقي حياً حتى اليوم فلا اظن ان الامر يختلف مع جيرارد، لانه يشبه والده. اقول لك ذلك يا فانيسا لانني اريدك ان تعرفي منذ البداية ان جيرارد ليس شخصاً جاداً. انه يجمع القلوب مثل رؤوس الطرائد. ولا اريده ان يفعل ذلك معك».

تساءلت فانيسا في داخلها هل يمكن ان تكون اعطت انطباعاً ان شيئاً مثل هذا يمكن ان يحصل؟ أليست السيدة ترنر قاسية قليلاً على ابنها؟ فمن غير العدل ربط جيرارد مع صفات والده الذي مات منذ زمن بعيد. شعرت ببعض التعاطف على الشاب الذي تتحدث عنه والدته بقسوة، والذي يتحمله ابن خاله من اجل خاطر الوالدة. لا غرابة ان جيرارد يشعر بالغربة داخل عائلته.

انتهى الحديث عن جيرارد، وانتقلت السيدة ترنر الى مواضيع اخرى ولم تعد تأتي على ذكر ابنها اطلاقاً.

في المساء، وفيما فانيسا تغير ثيابها من اجل العشاء، فكرت بزوج السيدة ترنر، غراهام. ماذا فعل ليجلب الملاحظة المرة من زوجته ويجعلها تقسو على ابنه؟ انها لعائلة غريبة. وقررت ان لا تتعاطى الا في الشؤون التي تعنيها، وان لا تدع شيئاً يشغلها عن الوظيفة التي جاءت من اجلها.

على الرغم من توقعات بانيت عن طقس سيء، فان الجو بقي صاحياً خلال الايام التي عقبت وصول فانيسا الى رالينغز. كانت تستيقظ باكراً وتتنزه في الحديقة مدة ساعة قبل موعد الفطور، وتكتشف حديقة جميلة محاطة بسور عال خلف اسطبل الخيول. ويوم التقت بالبستاني لأول مرة. وبدا غير منزعج من الغرباء، بل يحب ان يتحدث عن حرفته البائدة وهي الحفر في الخشب. حديثه جعلها تقضي وقتاً طويلاً معه وتتأخر عن موعد الفطور. وعندما

دخلت غرفة الطعام وجدتهم جميعاً هناك. اعتذرت عن التأخير.

ابتسم برانت وقال:

«يوم السبت يمكنك ان تأخذي وقتك».

وسألها جيرارد:

«ماذا تجدين في الحديقة صباح كل يوم؟ هل ثمة جنيات ساحرات؟».

«ان كانت ساحرة تطيل ذقنها وتحمل اسم جايلز فانه يكون كذلك. وهذا التفسير الوحيد الذي اعطيه لوجود رجل معمّر مثله».

وعلّق برانت على كلامها:

«اذن اكتشفت جايلز نابلورا شخصية مميزة اليس كذلك؟».

«نعم هو رائع. اخبرني انه قطع اطراف بعض النباتات في حديقة بيته ونحت فيها سفينة عديدة الاشرعة. اظن انها تستحق الرؤية».

«نعم تستحق ذلك. سأذهب الى القرية بعد الظهر، اذا كنت ترغبين في رؤية السفينة، سآخذك الى هناك ثم اعيدك في طريق العودة».

شكرته موافقة. ووقف قائلاً:

«سأرى مكتبك الجديد الآن. عندما تنتهين من تناول الفطور ارجو ان تأتي الى غرفة المكتب وتختاري الوضع الملائم».

وسألت السيدة ترنر ابنها ماذا سيفعل قبل الظهر فقال:

«كما افعل بين سبت وآخر. أراجع اوراق العمل المتأخرة. سأجلس في الباحة الخارجية. فانيسا، ان انتهيت سريعاً من برانت، ارجو ان تأتي اليّ في وقت لاحق».

وافقت. ثم ذهبت الى غرفة المكتب. وجدت برانت هناك، وضع المكتب الجديد في [illegible] بحيث يأتي اليها نور النافذة مباشرة [illegible] من [illegible] مكتبه، وطلب ان اراجع ما

كتبه بالأمس. ثم ابتسم وقال:

«لم اتوقع ان تبدأي بهذه السرعة. كنت اتوقع ان تحتاجي الى اسبوع في العمل الذي قمت به في الأمس. اهنئك».

«ما كتبته يعتبر اولياً. دونت الاشياء التي تتناول القاعة الكبرى. مثلاً الطاولة التي حفرها توماس شيراتون في العام ١٧٦٠، ماذا تهم قصته الزائر العادي؟ اذا اضفنا اليها انه جعل الطاولة على اسم سيدة الزخرفة، نكون جعلنا للقصة نكهة انسانية والقليل من العاطفة. اذ عوضاً عن ان يكون الرجل صانع مفروشات عادياً، يكون انساناً ذا حياة عاطفية خاصة».

«هل ذلك يهم؟».

سأل برانت وأجاب نفسه.

«كلا، ليس مهماً لي ولا لك. ربما للزائر العادي».

وتابع قراءة ما كتبت وقارنه مع النماذج القديمة. ودقت الحادية عشرة وكلاهما منهمك في العمل. وأخيراً قال:

«كفى! انه نهار سبت ونستحق الراحة».

ونظر الى الاوراق المكدسة امامها وقال:

«يا له من عمل طويل ينتظرك. عليك ان تبدأي من الصفر في كل غرفة».

«احب ان اشعر اني بدأت عملاً وانجزته».

«ان ما فعلته بالامس انجاز صغير. اكرر تهنئتي».

ولاحظ انها تبتسم وسألها:

«ما الامر؟».

قالت

«لا شيء، فكرة خطرت لي».

فقال مبتسماً.

ربما الفكرة التي خطرت لك هي كيف ان رجلا كان ضد تشغيل امرأة لانه يراها غير متوازنة، يغير رأيه. تعرفين ان لكل قاعدة شواذ. وانا محظوظ لاني وقعت على واحدة مثلك».

وقبل ان يغادرا المكتب معاً اضاف:

«المهم ان تبقي توازنك مع ذاتك!».

٤ - أمسية قاحلة

قال لها جيرارد عندما خرجا من غرفة الطعام بعد الظهر:

«ظننت انك ستأتين اليّ في الباحة الخارجية، حتى اني طلبت قهوة لشخصين. ماذا حصل؟».

ردت فانيسا:

«كنا نشتغل. والقهوة شربتها في غرفة المكتبة مع والدتك وبرانت. وفكرت فيك وتساءلت لماذا لم تكن معنا؟».

«لا بأس. هناك شيء كنت اريد ان اسألك عنه... عن...».

واذ برانت يقطع الحوار قائلا:

«هل انت جاهزة يا فانيسا، للخروج؟».

اجابت:

«نعم، طبعاً».

نصحها ان ترتدي كنزة صوف لان الطقس بارد في الخارج. ثم تابع الكلام متوجهاً الى ابن عمته عن امور تتناول العمل في القلع.

بعد وقت قصير نزلت فانيسا من غرفتها ووجدت ان جيرارد غادر البيت، وبرانت ينتظرها في سيارته اللاتسيا. جلست الى جانب برانت في السيارة وانطلقا في قيادة بدت لفانيسا مريحة وناعمة اعطتها الشعور بالحرية والدفء.

يسكن جايلز تايلور في كوخ من القش خارج المألوف في المنطقة. وبدا لفانيسا ان برانت ابلغ الرجل عن الزيارة اذ وجدته ينتظرها وزوجته السبعينية على الباب. وظهر الاثنان وكأنهما ارتديا اجمل ما لديهما من ثياب.

«ساعود بعد نصف ساعة».

قال برانت بعدما انتهت فانيسا من التعارف مع السيدة تايلور ودخلت البيت المتواضع. السفينة المحفورة في جذوع النباتات تستحق المشاهدة، فكرت فانيسا. انتاج رائع لسنين من الاهتمام والعناية والحب.

فرح جايلز لاهتمام فانيسا وقال:

«ليس العمل سيئاً، اليس كذلك؟ انه يختلف عن اشغال هذه الايام».

وراح يريها الاشكال المتنوعة التي حفرها. ثم عاد الثلاثة الى البيت، واعدت السيدة تايلور الشاي. وعندما رشفته فكرت فانيسا ان الطريقة القديمة في صنع الشاي تبقى الأفضل. وفيما هم يتجاذبون الاحاديث العامة سألت السيدة تايلور فانيسا:

«كيف تجدين العمل في القصر؟ هل تشعرين بالاغتراب في هذه الانحاء؟».

شعرت فانيسا ان كل ما ستجيب به سينقل بشكل او بآخر الى برانت. فأجابت:

«رالينغز مكان جميل. سأجد متعة في العمل فيه».

فعلقت المرأة المضيفة:

«صحيح ان رالينغز مكان جميل. وبرانت شاب محترم».

وبعد صمت قصير اضافت:

«ليس مثل والده».

هنا تدخل جايلز.

«ماغي، حذرتك مراراً من هذا النوع من الكلام، ارجو يا آنسة فانيسا ان لا تهتمي بثرثرة النساء في هذه المنطقة. إن الألسن لا تعرف كيف تحفظ حدها».

بعد قليل افتقد جايلز علبة التبغ ليحشي بها غليونه. وغادر الغرفة باحثاً عن العلبة في الحديقة. فانتهزت زوجته فرصة غيابه وقالت:

«بارت مالوري لم تكن معاملته طيبة مع احد. كان رجلاً قاسياً. عامل زوجته في قسوة. يقول البعض انها ماتت نتيجة تناولها جرعات زائدة من الحبوب. انهم لا يعرفونها جيداً. كانت تعيش من اجل ابنها. وكان يكتب لها الرسائل من المدرسة الداخلية وتطلعني على مقاطع منها. كان عائداً الى البيت في عطلة الصيف في اليوم الذي تبع موتها. انا لا اظن انها تقتل نفسها في اليوم الذي تعرف ان ابنها آت في اليوم التالي».

وبعد دقيقة صمت اضافت:

«اظن ان من الأفضل عدم التحدث في مثل هذه الأمور».

فقالت فانيسا:

«اوافق معك. فهناك اشياء من الأفضل نسيانها».

وعندما عاد جايلز من الحديقة وفي يده علبة التبغ، كان برانت

ايضاً وصل بالسيارة. ودعت فانيسا مضيفيها وشكرتهما على الشاي وعلى الجلسة اللطيفة.

في السيارة سألها برانت:

«هل امضيت وقتاً طيباً؟».

«جداً. شربنا الشاي اللذيذ. منذ زمن بعيد لم اشرب شاياً بهذه النكهة الطيبة».

«صحيح. ان ماغي اشطر من صنع الشاي. اذكر عندما كنت يافعاً، كنت ازورها لأشرب الشاي وآكل الكعك من صنع يديها. كانت تقول اني نحيل جداً واحتاج الى زيادة وزني. وعندما بدأت اسمن اعتبرت هي ان الفضل يعود لها».

فانيسا وجدت صعوبة في تخيل الرجل الممتلىء قربها نحيلاً في طفولته. حاولت ان تنسى الكلمات التي سمعتها من ماغي ولكن لم تستطع. صدمت لاكتشافها الحقائق عن موت كارولين مالوري. وفكرت أن لا عجب ان يكون لموت الأم هذا التأثير القاسي على الصبي ابن الثانية عشرة سنة. وما عادت تتساءل لماذا صورة بارت مالوري غير موجودة بين سلسلة الصور. ولا احد في راليتغز كان يتفوه باسمه. وكأن الكل يرغب في نزع ذكراه من سجلات العائلة.

وجدت برانت يسلك طريقاً مختلفة عن طريق القصر فسألته:

«هل نسلك طريقاً جديدة اجهلها الى البيت؟».

«بل نسلك طريقاً طويلة. يجب ان اجلب احد اعضاء العائلة من المصح».

لاحظ استغرابها فابتسم وقال:

«انه كلبي. كسر رجله اثناء غيابي في لندن. وضعته نورا في المصح الى ان اصبح قادراً على السير».

ثم اضاف:

«هل تحبين الكلاب؟».
«احبهم مثل اي انسان لا يجب عليه الاهتمام بهم في استمرار».
امام المصح نزل برانت من السيارة وغاب قليلاً ليعود مع كلب ضخم لم ترى فانيسا مثله من قبل. وجدته جميلاً جداً، متناسق الجسد والحركة، قوي البنية، يشبه سيده.
فتح برانت الباب الخلفي للسيارة ودعا كلبه للدخول:
«لا تخافي منه. انه صديق، واسمه توبر».
وقال للكلب:
«اهدأ الآن. توبر، اهدأ».
اطاع الكلب سيده فوراً. ولم تجد الأمر غريباً. إن صوت معلمها الآمر، له تأثير على البشر مثل تأثيره على الحيوانات.
ادار برانت محرك السيارة وقادها في اتجاه جديد:
«اريد ان اريك شيئاً. اذ ربما لن تسنح لك فرصة ثانية لرؤيته في طقس صاحٍ».
طيلة الطريق لم يتبادلا الكلام إلا قليلاً. كانت تراقبه بين وقت وآخر. وتشعر رويداً رويداً بوجوده القوي الى جانبها. راحت تحلل شخصية الرجل. من الصعب معرفة ماذا يدور في رأسه. وفكرت ان لا احد يستطيع ان يخترق حرمته الا اذا شاء هو. وشعرت في داخلها بانذار يحذرها من الرجل.
الطريق بدت طويلة، تمر بين تلال واراض وعرة وصخور. بعد فترة انحرف الى طريق فرعية وتوقف قبل منحدر واذا بالمكان يطل على واد فسيح لم تر فانيسا اجمل منه من قبل. مع اشعة الشمس المنعكسة، ظنت فانيسا ان ما تراه ليس الا سراباً رائعاً.
«انه وادي الأمل».
قال وهو يراقب ردود فعلها.

«نسمي هذا المكان: «المفاجأة»، لأنه يأتي من دون توقع او تمهيد».

«انه رائع جداً، رائع جداً. . .».

قالت فانيسا وهي تفتقد الكلمات التي تعبر عن افتتانها بالمنظر.

«لو ترينه عند الغروب، عندما تتوزع الخيالات على التلال، وتبدو وكأنها رؤوس من نار، يصبح المكان صالحاً جداً للمحبين».

فكرت انه احضرها في وقت يقترب من الغروب. فقالت من دون تركيز:

«ان المحبين لا يحتاجون الى المناظر الجميلة».

وجدته ينظر اليها بعينيه الزرقاوين ويقول:

«تتكلمين مع بعض الخبرة. هل سبق أن وقعت في الحب يا فانيسا؟».

وجدت السؤال بسيطاً ولم تفهم لماذا شعرت باحمرار في وجنتيها. فقالت:

«لا، لم اقع في الحب بعد. لم يكن عندي وقت للطيش».

وفوجئت به يقول:

«لو جربت هذا الشعور لما استعملت كلمة طيش. الحب لا يهتم بالوقت او بالمكان. يحضر عندما لا تتوقعينه، ويمكن ان يسبب الماً بقدر ما يسبب سعادة. يوماً ما ستعرفين ذلك بنفسك».

ثم ادار المحرك قائلاً:

«من الأفضل ان نعود الى البيت. ان توبر بدأ يتعب».

توبر لم يكن وحده متعباً. فانيسا شعرت انها متعبة من كلام برانت ونظراته.

كان وقت الشاي عندما وصلا الى القصر. رائحة الفطير تملأ القاعة الكبرى وتنبعث من غرفة المكتبة حيث الباب غير مغلق،

وصوت نسائية تعلو وتضحك. وراح الكلب ينبح وهو يقفز داخل غرفة المكتبة وصوت نسائي ضاحك يدعوه للهدوء. فاسرع برانت حطة ولد بفتاة شقراء تبتعد عن الكلب وتسرع نحو برانت.

«مويا!».

صاح برانت بفرح وفتح ذراعيه قائلاً:

«لماذا لم تخبريني انك قادمة؟».

تعانق الاثنان. وسألته الفتاة بغنج:

«هل اشتقت الي؟».

«لقد اشتاق دائماً».

قال وهو ينظر في لهفة الى الفتاة الشابة التي بدت لفانيسا جميلة ووردية الخدين. واضاف:

«تبدين رائعة. حمام الشمس اضفى عليك لوناً جميلاً. وكذلك شعرك جميل».

وعندما خفت اللهفة نقلت مويا عينيها الى حيث كانت فانيسا واقفة قرب الباب. فقالت من فوق كتف برانت:

«مرحباً، اعتذر إن تأخرت في السلام عليك. ولكني لم ار الرجل منذ ستة اسابيع!».

ضحك برانت وقال:

«الرجل لم يتوقع ان يراها الا بعد اسبوعين من الآن على الأقل».

ثم تولى تعريف الفتاتين:

«مويا هانسن، فانيسا بيدج، سكرتيرتي».

«سكرتيرتك؟».

سألت مويا في تغم وكأنها تستغرب الأمر، ثم تابعت:

«الحياة ملأى بالمفاجآت، انت تختلفين عن اللذين سبقوك. آمل ان تكثي اطول منهم هنا. وجود فتاة في مثل عمري في هذا المكان

سيكون مسلياً لنا».

ونظرت الى برانت قائلة:

«اياك ان تخيف هذه الفتاة او تدعها تهرب».

ورد ببساطة:

«فانيسا لا تخاف بسهولة. اليس كذلك يا فانيسا؟».

«احاول الا اخاف».

اجابت بصوت بدا لها غير صوتها.

تكلمت نورا ترنر للمرة الأولى منذ دخولها، فقالت من مقعدها خلف طاولة الشاي:

«تعالا اشربا الشاي قبل ان يبرد».

وسأل برانت مويا بعدما جلس الجميع:

«وما الذي اتى بك باكراً؟ في رسالتك الأخيرة فهمت انك مولعة بالنساء».

«مللت، شعرت بشوق الى البيت».

واضافت باسمة:

«اشتقت اليك».

«كيف حال برنار؟».

سألت نورا

«لم نره خلال غيابك».

اجابت مويا:

«آه، ابي في صحة جيدة. ولكنه مشغول في العمل. اشترى فرساً جديدة، ويريدك يا برانت ان تراها في وقت فراغك».

ثم قالت لفانيسا:

«ان المنطقة جيلة للنزهة فوق حصان. اظن انك جربت ذلك بنفسك».

«ولا انا لست راكبة فرس جيدة. حيث سكنت في السنوات الماضية لم يكن من مجال لأركب حصاناً».
وقد بعتي مويا البنفسجيتين تبسمان وتقول:
«اه، يا مسكينة! ولكن لا اظن ان مشكلتك عويصة. براتت يملك فرساً اضافية سهلة القيادة. استطيع ان ادلك على المكان وساعدك في اي وقت تشائين».
«لا اظن ان يكون عندي وقت لركوب الخيل، ولكن اشكرك للعرض في كل حال يا آنسة هانسن».
«ارجوك اسمي مويا. آنسة هانسن تجعلني ابدو متخلفة. لا تستطيعين ان تعملي كل الوقت. غداً الأحد. ولا اظن برانت يريدك ان تعملي غداً».
وسألت برانت بدلال:
«هل تريدها؟».
اجاب:
«ربما، بعد موعد الشاي في المساء. حتى ذلك الوقت، النهار هو ملكك يا فانيسا. ولا ارى سبباً يمنعك من ركوب الفرس دايس. لن تجدي صعوبة معها. انها هادئة جداً».
«ولا تهتمي باللباس».
قالت مويا من دون ان تجد فانيسا مجالاً للرد، فتابعت:
«انا وإياك تقريباً قياسنا واحد. واملك لباساً اضافياً للخيل يناسبك، سأحضره لك غداً بعد الغداء».
علقت نورا هنا:
«انت وبرانت يا مويا مجنونا أحصنة! لم اجد يوماً شيئاً يجذبني اليها».
وعرضت الشاي مجدداً على الحاضرين، فشكرتها مويا ووقفت

قائلة:

«يجب ان اذهب».

ثم بدا وكأنها تذكرت شيئاً فقالت لبرانت:

«رأيت اليوم برندا رامسدن في القطار من لندن صباحاً. دعتنا انا وانت للعشاء عندها هذه الليلة».

فقال برانت:

«هكذا دعوة آخر لحظة! انها برندا في كل حال، وهذه عادتها».

واضاف بعد تفكير:

«ظننت انك تفضلين مكاناً مثيراً اكثر من بيت برندا خصوصاً في الليلة الأولى من عودتك».

ضحكت مويا وقالت:

«تستطيع ان تفاجئني بمكان مثير في ليلة اخرى. اظن انه من الأفضل ان نذهب الى دعوة العشاء».

وسارت مويا يرافقها برانت الى الخارج وكذلك توبر. وبدت الغرفة فجأة فارغة. انهت فانيسا فنجان الشاي بصمت ووجدت نورا تسألها:

«اين ذهبتما خلال بعد الظهر؟».

«برانت اراني المناظر الخلابة قبل ان يتغير الطقس. اخذني الى وادي الأمل».

ثم وقفت فانيسا وقالت:

«عذراً يا سيدة ترنر، ارغب في الذهاب الى غرفتي. يجب ان اكتب رسالة».

«رسالة واحدة فقط؟ اظنها لصديقك الحميم».

ابتسمت فانيسا وقالت:

«نيفيل سيسر جداً ان علم انك تقصدينه. انه الرجل الذي

اشترى الدكان وهو صديق قديم لجدي. وعدته ان ابقى على اتصال به».

«وماذا ستخبرينه؟ هل الوظيفة مثلما كنت تتوقعين يا فانيسا؟».

«لم اكن اعرف ماذا اتوقع. لم اكن موظفة من قبل. هنا اجد بعض الصعوبة في معرفة كيف اتصرف».

«تقصدين انك لا تعرفين معنى ان تكوني واحدة من الاسرة. لا اظن يا عزيزتي ان الأمر صعب. ان تربيتك تساعدك على التصرف. اذهبي يا ابنتي واكتبي رسالتك. وسأراك فيما بعد. اظن اننا سنكون وحدنا على العشاء».

كانت فانيسا خارج غرفة المكتبة عندما راحت كلمات نورا تتردد في اذنيها. اذن جيرارد ايضاً لن يكون في البيت للعشاء. طبعاً، انها ليلة الأحد. وشاب مثل جيرارد لا يمكن ان يمضي عطلة نهاية الاسبوع في البيت. تمنت لو كانت معه الآن. وبدت لها الأمسية امامها مملة وصحراوية.

٥ - مرارة الظلم!

حضرت مويا في الثانية بعد ظهر اليوم التالي. احضرت معها لباساً اضافياً للخيل، ورافقت فانيسا الى غرفتها للقياس. كان البنطال ضيقاً قليلاً ولكن فانيسا تمكنت من ارتدائه من دون صعوبة. مع الكنزة ذات الياقة العالية المقلوبة، بدت فانيسا وكانها رياضية عتيقة. وضعت في قدميها زوج احذية قوياً خاصاً بالمشي. فبدت جاهزة للخيل من رأسها الى اخمص قدميها.

استرخت مويا على الكرسي في غرفة فانيسا وهي ايضاً بدت انيقة في ملابس الخيل. سألت بخفة:

«هل جيرارد في البيت اليوم؟ ام وجوده هنا يوم احد كثير ان نتوقعه منه؟».

تساءلت فانيسا في نفسها: هل مويا ايضاً تشترك مع الاخرين في
عدم الرضى على الشاب؟
وقالت:
«هو غائب عن البيت منذ بعد ظهر امس. فهمت انه يمضي عادة
نهاية الاسبوع في المدينة».
علقت مويا:
«آه، صحيح. انه يقيم في شقة لصديقه في مانشستر. لا يستطيع
تحمل هذا المكان في نهاية الاسبوع».
واضافت ضاحكة: وانا اتعجب كيف لم يطلبك للسهر معه. ان
جيرارد عادة ليس بطيئاً في مثل هذه الأمور».
«ربما لم يخطر في باله ان يدعوني».
قالت فانيسا وهي تعقد شريط حذائها. ووجدت نفسها تسأل في
فضول محاولة ان تبدو لا مبالية:
«منذ متى جيرارد والسيدة ترنر يعيشان في القصر؟».
«منذ ست سنوات. جاءا الى هنا بعد وفاة والد برانت. ان نورا
طيبة اليس كذلك؟ اعجب كيف تمكن بارت مالوري من معاملة
شقيقته تلك المعاملة القاسية. هي شقيقته ومع ذلك لم يسمح لها ان
تقترب من القصر!».
«لم لا؟».
«القصة كلها سخيفة وتعود الى مشاكل عائلية قديمة. نورا وقعت
في حب شخص لم توافق عليه العائلة. تخلى عنها والدها عندما
اصرت على الزواج من غراهام ترنر، طردها من بيته الى الابد. ولم
يوافق على عودتها حتى عندما تعثر زواجها. وكذلك ابنه، والد
برانت. وعندما مات بارت مالوري واصبح برانت سيد القصر أصرّ
على عمته ان تعود الى بيتها الطبيعي».

ووجدت فانيسا نفسها مأخوذة بالقصة فقالت:

«ولكن غراهام ترنر مات منذ زمن بعيد. أين عاشت نورا مع جيرارد كل المدة قبل العودة الى راليغز؟».

«كان عند نورا بعض المال من ارث لم يتمكن والدها ان يحرمها منه قانونياً. استنفدته كله في شراء بيت في غرينفورد عند الزواج. ولكن البيت لم يكف زوجها، هو الذي ظن انه تزوج من فتاة تنتمي الى عائلة ثرية. برانت يقول انه كان عاطلاً من العمل، جميل الشكل ولكن فارغ المحتوى. نورا ربما ظنت انها تستطيع تغيير طباع زوجها مع الوقت».

راحت فانيسا تفكر بنورا ترنر الشابة التي وضعت حبها قبل عائلتها وفقدت كل شيء في سبيل ذلك. ووجدت مويا تعلق:

«برانت يقول ان كل النساء من نوع المتفائلات المتعصبات. يقول اننا نحن معشر النساء نظن انه بواسطة الحب نستطيع نقل الجبال. واننا نهدر وقتنا عبثاً في محاولة تغيير ما لا يمكن تغييره. اظن انه على حق».

«يبدو انك حاولت ذلك مع برانت».

«مع برانت؟ ولماذا اريد تغييره؟ احب الرجل كما هو. حتى عندما يكون متسلطاً. منذ طفولتي وانا اراه حاضراً كلما احتجت اليه. وهو كان دائماً الرجل الرائع نفسه!».

«قليل من الرجال هم كاملون مثله».

رددت فانيسا في تعبير تمنت لو لم تقله، ووجدت مويا تنظر اليها.

«انا لم اقل انه كامل. لبرانت سيئاته. ولكل انسان سيئاته».

ثم وقفت وهي تقول:

«من سيئاته غياب الصبر. واظن انه ينتظرنا ويجب ان نسرع. طلب ان نكون حاضرتين عند الثانية تماماً».

كان برانت سيكون معها، فكرت فانيسا، وتبعت مويا وهي تغادر الغرفة.

الاسطبل شيد في شكل يتسع الى اكثر من دزينة احصنة مع كل ما يتبع من خدمة ونظافة. تحول القسم الأكبر من الاسطبل الى مستودع لأشياء لا قيمة لها. برانت احتفظ بحصانين، الفرس دايس وحصانه الاسود الضخم فايان. كانا معدين سلفاً في ساحة الاسطبل الى جانب فرس مويا.

كان برانت يتحدث مع شخص لم تره فانيسا من قبل، هو جورج العامل في الاسطبل، لما رآهما تقتربان، ابتعد برانت عن محدثه واستقبلهما قائلاً:

«كنت سأنتظر خمس دقائق اضافية ثم اصعد الى الغرفة واسحبكما من فوق! تباً للنساء عندما يجتمعن».

بدا لفانيسا مكتمل الرجولة في لباس ركوب الخيل. قال لها: «تبدين عصبية. هل انت خائفة من دايس؟».

«كلا لست خائفة من دايس. فقط خائفة من السقوط عنها».

«لا يمكن ان تقعي، انها سهلة القيادة مثل كرسي هزاز عتيق».

«لماذا تحتفظ بحصان اضافي، ان كان لا احد يركبه».

سألت وهي لا تتوقع من جيرارد او من امه اهتماماً بالخيل.

«لرفقة فايان. حتى الحيوان يشعر بالوحدة».

امسكها من ذراعها ورفعها نحو الفرس وهو يسأل:

«كم مرة ركبت حصاناً؟».

«ربما خمس او ست مرات. الا اذا اعتبرنا ركوب الحمير، في مشاوير سياحية، جزءاً من ركوب الخيل! اذكر اني كنت خيالة ممتازة على حمار».

ضحك الجميع ثم قال برانت:

والتمرين هو اساس هذه الرياضة».
جلست فانيسا على الفرس. وساعدها برانت في تصحيح الرسن. ثم ركب حصانه، وكذلك فعلت مويا. وسار الثلاثة في اتجاه باب الباحة للخروج الى السهل الممتد امامهم. مويا سبقتهما بضعة امتار في محاذاة ساقية ماء تصب في البحيرة البعيدة. وبدت هي والحصان في رفقة حميمة. راقبتها فانيسا باعجاب وقالت:
«مويا تقود حصانها بشطارة».
اجابها برانت وهو يراقب مويا ايضاً:
«طبعاً. بدأت ركوب الخيل وهي في الخامسة من عمرها. انها شاطرة جداً».
«هل يمكنها ان تمتطي حصانك فايان؟».
«لم تجرب. ان فايان قوي جداً لامرأة وهو ليس اهلاً للثقة، في اي حال».
ورفع يده ملوحاً لمويا التي توقفت من بعيد والتفتت صوبهما، وقال:
«انسرع قليلاً، اذا لم تستطع دايس من تلبية رغبتك، دعيها تقودك. انت فقط استريحي وكأنك تجلسين على كرسي هزاز».
مع مرور الوقت بدأت فانيسا تشعر بسهولة ركوب الفرس. لحقا بمويا. وبدأ السهل ينحدر. اقترحت مويا:
«سأسابقك يا برانت حتى نهاية الخط».
ولم تنتظر جوابه بل قفزت بالحصان تسابق الريح. وكذلك فعل برانت بعدما شجعته فانيسا على اللحاق بمويا قائلة:
«لا تخف علي. سأكون بامان مع دايس».
في اسفل المنحدر وجدتهما يتجاذبان اطراف الحديث. بدت مويا تروي اشياء اثارت الضحك لدى برانت. رأته يقترب من مويا

ويشدها من معصمها، ناظراً اليها، من دون ان تتمكن فانيسا من رؤية تعابير وجهه. تباطأت كي لا تزعجهما. وعندما وصلت كان الاثنان مفترقين.

قالت مويا:

«كنا نفكر... ان نتابع طريقنا حتى البلدة المجاورة. نحتاج نصف ساعة على الحصان. ما رأيك؟».

اجابت فانيسا:

«ان المشوار بعيد جداً بالنسبة الي. واظن اني اكتفيت من الفرس اليوم. وبدأت اشعر بدوخة. افضل العودة الى البيت».

وافق برانت

«حسناً، سنعود الى البيت كلنا».

ولكن فانيسا لم تشأ افساد متعة رفيقيها، فقالت:

«ارجوك لا. استطيع ان اتدبر امر العودة. كنت على حق بالنسبة الى دايس. انها سهلة القيادة».

تردد قليلاً ثم قال:

«حسناً، لا تقلقي ان كنت لم تمكثي من المكوث مدة اطول على الحصان في اليوم الأول. مع الوقت ستعتادين الأمر ويصبح سهلاً».

ثم قال لمويا:

«لنذهب الى القرية ونمر على المقهى الذي لم نزره معاً منذ زمن بعيد».

وعادت فانيسا وحدها تاركة دايس تجد طريقها. وعندما سلمت الفرس في الاسطبل وسارت نحو البيت، شعرت انها حزينة. فكرت بحمام دافىء وبتغيير ثيابها. واذ بسيارة مسرعة تقبل نحوها. وجيرارد يطل برأسه مبتسماً. اوقف سيارته الحمراء ونزل يسألها:

«هل ذلك الرجل ادخلك ايضاً في عالم الاحصنة؟».

ونظر صوب الاسطبل متفقداً برانت:
«ذهب الى القرية المجاورة مع مويا».
قالت وسط استغراب جيرارد.
«اذاً عادت الأميرة! وعادت الايام السعيدة!».
ثم سألها:
«اين انت ذاهبة الآن؟».
«الى البيت اخلع هذه الثياب عني: هل تأتي؟».
«لأساعدك في خلع الملابس؟».
قال مازحاً ثم اضاف
«لا اظن ابن خالي يوافق على هذا التصرف».
ثم قال جاداً:
«ان الساعة ما تزال الثالثة بعد الظهر. تعالي معي في جولة في السيارة».
ادعت انها تفكر في العرض ثم وافقت وصعدت الى السيارة. سألها وهو يدير المحرك:
«اين تريدين الذهاب؟».
«الى اي مكان تختاره. انت تعرف المنطقة هنا. واي مكان يمكن ان اتعرف اليه».
قاد السيارة في طريق معاكسة لتلك التي ذهبت فيها بالأمس مع برانت. فكرت: هل بالأمس حقاً كانت في رفقة برانت؟ تبدو لها النزهة وكأنها حصلت قبل وقت طويل.
كان يقود السيارة في سرعة طائشة. ومع ذلك شعرت فانيسا انه اطلقها من سجن ذاتها. طارت خصلات شعرها، ووجدت انها في حاجة الى جنون شاب مثل جيرارد. ومع انه بدا يسعى الى اظهار شطارته في قيادة السيارة الا انه كان قادراً على التحكم بها.

مر بعض الوقت وهما في السيارة يخترقان تلالاً وسهولاً في طريق يبدوان لا نهاية لها. واخيراً اختار جيرارد طريقاً فرعية تطل على واد فسيح اوقف السيارة على جانب الطريق، واشعل سيكارتين له ولفانيسا وقال:

«اسف انتظرتك طويلاً. كنت ارغب في دعوتك الى السهر معي في المدينة. ولكن لم اتمكن من التحدث معك خلال النهار. اين امضيت برانت بعد الظهر؟».

«ذهبنا لجلب توبي».

«هل انضم الكلب الى العائلة ايضاً؟».

وراح ينفث الدخان ويقول:

«اذن اكتمل عقد العائلة».

ثم سألها:

«ما رأيك بمويا؟».

«انها فتاة ناعمة جداً. هي التي اقترحت ركوب الاحصنة اليوم، ولكني لم استطع مجاراة حماسها».

«ومن يستطيع؟ هي وبرانت يركبان الخيل كل نهاية اسبوع منذ زمن بعيد. كلاهما مغرم بالخيل».

«كم عمر مويا؟».

«عشرون سنة. احياناً اظن انها اصغر من ذلك بكثير انها فتاة عاقلت وملعقة الذهب في فمها. اي شيء تريده تجده على الاطباق. لم تفكر يوماً ان تفعل اي شيء غير اختيار ملابسها او تصفيف شعرها. اظن انه من المفيد ان تعمل يوماً كاملاً من الاشغال التي تجبر على القيام بها نحن. ان هذه الفتاة تحتاج للنضوج».

زوجة لبرانت لن تحتاج الى العمل، فكرت فانيسا انه زوج متطلب. والمرأة التي سيتزوجها ستكون معه في دوام كامل. ولكن

هل مويا قادرة على العطاء؟ تساءلت وهي تشك في الأمر. ومع ذلك، عاطفة مويا نحو برانت لا شك فيها، خصوصاً بعد حديثهما معاً في الصباح. ولكن اين يلغا في العلاقة؟ ان جيرارد كان مصيباً عندما قال إن مويا تحتاج الى نضج. بالطبع برانت يعرف هذا الواقع ايضاً.

قطع جيرارد شريط افكارها قائلاً:

«عدت هذا المساء لسبب واحد. امس لم اتمكن من دعوتك للسهرة. هل تذهبين هذه الليلة؟ ان احد اصدقائي يقيم حفلة راقصة. اظن انه يفيدك ان تكوني بعيدة عن رالينغز بعض الوقت».

«احب ذلك، ولكن. . . يجب ان اسأل برانت اولاً. فقد قال ان لدينا بعض العمل بعد موعد الشاي. ولا اعرف اذا كان العمل يستمر الى ما بعد العشاء».

«ماذا؟ حتى يوم الأحد؟ قولي له انك لن تعملي يوم الأحد».

«لا استطيع. ان الموضوع متفق عليه في العقد. في كل حال انا لا اظن انه يرغب في العمل خلال الليل، ولكن سؤاله ضروري من زاوية اللياقة».

«ارجو ان لا تخبريه اين ستذهب. انه لا يوافق على صحبتي مع بوب فارو».

«هل لديه اسبابه الموجبة؟».

«إن أي شخص اصاحبه يجب ان يلائم مستوى ابن خالي العظيم. اظن ان يوماً ما سيأتي وسيواجه صدمة حياته. وكل ما آمله ان اكون حاضراً كي اشهد النهاية».

«ولماذا لا تثبت شخصيتك امامه يا جيرارد؟ لماذا لا تعبر عن رغباتك وتؤكد مواقفك؟ ربما اذا فعلت تصبح علاقتكما افضل مما هي عليه الآن».

ولأني جبان يا عزيزي. ولأني عندما اخوض وبرانت معركة كلامية فإنه الأقوى على كل السياط من دون جهد يذكر».

«ولماذا تعمل معه؟ لا بد ان ثمة مجالات عمل اخرى؟».

«طبعاً استطيع ان اعمل في مصنع حديد مثلاً او مساعداً في دكان. ولكن لسوء الحظ امي تضع يدها على اموالنا. وتظن ان برانت هو الاجدر في ادارتها. هي تدعمني فقط ان كنت في شراكة مع برانت».

صمت جيرارد قليلاً وبدا متضايقاً، ثم قال بمرارة:

«يا الهي كم اكرهه! ان وجودي معه طيلة الاسبوع يشبه وجودي في سجن!».

«ماذا كنت تفعل يا جيرارد لو كنت تملك حرية التصرف؟».

«الأمر سهل جداً. كنت اصبح سائق سباق».

«هل تعني انك تعمل سائقاً لدى احدى شركات سيارات السباق؟».

«كلا، بل اصنع سيارتي الخاصة. اني رسمتها على الورق مع كامل التفاصيل الميكانيكية. تحتاج فقط الى تنفيذ. بعدها انا متأكد انها ستفوز في اي سباق».

«ان المشروع مكلف جداً اليس كذلك؟».

«اجل ولكنني احتطت للأمر. اشتري اولاً مرآباً لتصليح السيارات. فانا اهتم في كل شيء له علاقة بالسيارات، ثم امضي في بناء سيارتي خلال سنة من اوقات الفراغ. ثم اقتحم بها اي سباق وتبدأ ايام التحدي الحقيقية. ولكن ثمة مشكلة صغيرة، المشكلة التقليدية، المال. حاولت الحصول على قرض من برانت ولكنه رفض. قال ان المشروع في رأسي سينتهي الى ان اهمل العمل في المرآب واهمل سيارتي وينتهي المشروع الى الافلاس».

شعرت فانيسا انها تلوم برانت. جيرارد كان يتحدث في جد وهو يعرض مشروعه. ربما هذا هو مجاله، عمل ملموس يؤمن به. الخطة كلها لا تبدو خيالية، بل واقعية وممكنة.

نظرت الى ساعتها وصرخت:

«جيرارد انها الرابعة والنصف. الآخرون لا بد ينتظروننا».

«ليس مهماً امرهم. اتوقع ان يكونوا تركوا لنا بعض الشاي».

«ليس هذا ما قصدت. قلت لك ان برانت يريدني ان اعمل بعد موعد الشاي، اي الآن. ارجوك لنعد الى البيت، وبسرعة».

تجاوباً مع رغباتها انطلق جيرارد بالسيارة في اقصى سرعة. ونحو الخامسة وعشر دقائق دخل الاثنان غرفة المكتبة. برانت كان مستنداً الى النافذة مغطياً بكتفيه العريضين اشعة الشمس الغاربة، سأل:

«اين كنتما؟».

اجاب جيرارد:

«انا المسؤول عن التأخير. اقنعت فانيسا لتأتي معي في جولة في السيارة ثم نسينا الوقت. ارجو ان لا تظن السوء».

ولمح مويا تجلس الى جانب امه فابتسم وقال:

«فانيسا اخبرتني انك عدت. الم يقنعك النمساويون بالبقاء؟».

ولم ينتظر الجواب بل سأل ان كان في الابريق بعض الشاي له ولفانيسا. واجابته امه:

«سيحضر الخدم ابريقاً اضافياً».

لاحظت فانيسا نظرات برانت الباردة. اعتذرت عن التأخير. فقال:

«لا بأس. انا انتظرك في المكتب».

وخرج من الغرفة. وتبعته فانيسا. شعرت انها في حضوره مثل تلميذة ارتكبت سلوكاً سيئاً وتستعد لسماع التأنيب من المدير.

«هل نسيت اننا كنا سنعمل بعد الظهر؟».

«كلا، لم انسَ. تأخرت قليلاً. كنت وجيرارد نتحدث و. . .».

«ارجوك احتفظي بالتفاصيل. استطيع ان اترك لمخيلتي تصور ماذا حدث؟ انا اعرف ابن عمي جيداً. كنت اظنك اكثر نضجاً من الانجراف وراء كلمات معسولة من شاب متهور، لا سيما اني سمعتك صبيحة اليوم الأول من وجودك هنا تقولين له ان ثمة سلوكاً يعرف بالتهذيب. واعجبت بكلماتك. عندها ظننت انك فهمت جيرارد على حقيقته في نظرته للمرأة بأنها جبل ينبغي تسلقه لينتصر!».

شعرت انه يسيء اليها ويترجم ظنونه وكأنها وقائع. اشتعلت غيظاً ولكنها كتمت مشاعرها وقالت:

«اعتذر ان تأخرت نصف ساعة. ساعوض عن ذلك في أي وقت آخر».

«التأخير ليس ما ابحثه معك. انت تعرفين ذلك. انا اخترتك للعمل عكس قناعتي في توظيف المرأة لانني ظننت ان الاهتمام والمعرفة عندك سيعطلان اي لهو جانبي. حتى اليوم كنت مقتنعاً تماماً بحسن اختياري. ولكني الآن لم اعد متأكداً. هل خطر ببالك ان لا احد سيعرف اين انت او مع من؟ اريدك ان تعرفي ان اي حياة خاصة لك تأتي بعد طلباتي الوظيفية. هذا كل شيء الآن».

قال كل ما اراد قوله ولم يترك لها مجالاً للرد. لم تناقشه بل سألت:

«وماذا عن العمل الذي اردت ان نقوم به بعد الظهر؟».

«لا اظن انه من المفيد ان نبدأ الآن. الساعة تجاوزت الخامسة والنصف».

شعرت انه يبالغ في انزعاجه. اذ امامها اكثر من ساعتين حتى موعد العشاء. وجدت نفسها مطعونة في كبريائها ومع ذلك لم تتردد

في القول:

«اذن انت لا تمانع ان ذهبت للسهرة هذا المساء. جيرارد سألني ان اسهر معه».

«اين؟».

«حفلة عند صديق».

«من هو هذا الصديق».

شعرت ان اسئلته تنهال عليها على الرغم من ان حياتها الخاصة خارج راليتغز لا يجوز ان يتدخل فيها. ومع ذلك اجابت:

«بوب فارو».

«انت لن تذهبي».

قالها بهدوء جعلها تظن انه يمزح. وعندما وجدته جاداً قالت:

«لا تستطيع ان تمنعني».

«طبعاً استطيع. انا اريدك هنا بين التاسعة والعاشرة من اجل العمل».

«لماذا؟».

«لتعوضي الوقت الضائع الذي هدرته مع ابن عمي الطائش».

ثم اضاف:

«ان العقد بيننا واضح، الا اذا كنت تعتبرينه مجرد ورقة».

«كلا، ان العقد واضح تماماً. وهو بالنسبة الي ليس مجرد ورقة. ولكنك تبدو ظالماً».

فكرت ان تقول له انه يسيء الظن بها. وان تشرح له بصدق كل ما حدث بينها وبين جيرارد بعد الظهر وكذلك عن السهرة التي لم يكن متفقاً عليها سلفاً، ولكنها لم تشرح بل وجدت نفسها تسأله:

«عندي فضول ان اعرف لماذا تعترض على صديق جيرارد؟».

«اعترض لسبب بسيط، ولكنني لا استطيع التعبير عنه في شكل لا

يؤذي اذنيك. ان بوب فارو وسائر شلته ليسوا من الناس الذين اعتدت مرافقتهم».

«ولكنك لا تعرف اي نوع من الناس اعتدت مرافقتهم».

قالت ذلك وغادرت الغرفة من دون ان تسنح له فرصة للرد.

كان جيرارد ينتظر في القاعة الكبرى، مستندا الى حائط ينفث سيكارة، من دون ان يبالي بضرر الدخان على اللوحات الاثرية. وعندما رآها اقترب منها وسأل:

«ماذا؟».

«اعتذر لا استطيع الذهاب معك».

«تباً له!».

قال مغتاظاً ورمى عقب السيكارة على الأرض واطفاها تحت حذائه. ثم قال:

«آسف لانك لن تستطيعي المجيء. ارجو ان تتمكني في مرة مقبلة».

فور انتهاء العشاء شعرت فانيسا ان الساعات المقبلة لن تكون سهلة. نورا قالت لها وهما تشربان القهوة:

«ان كان يوجد بين الرجال شيء مشترك فهو التجهم والعبوس عندما يضايقهم شيء بسيط. ومحاولة التخفيف عنهم تجعلهم اسوأ».

لم ترغب فانيسا اطلاقاً في التخفيف عنه. ان ملاحظاته القاسية كانت كافية لتجرحها. كانت تراقب يديه تقلبان الاوراق التي راجعاها معاً في اليوم الفائت وتجيب على اسئلته في عبارات سريعة ومقتضبة. وبعد عشر دقائق ما عاد الجو محتملاً. فوضع الاوراق على المكتب امامه ونظر اليها قائلاً:

«ان جو التوتر لا ينفع. كنت غاضباً بعد الظهر وربما تفوهت

بكلمات اكثر مما يجب. ارجو ان تكوني متفهمة وتتوقفي عن العبوس».

«وانا لست عابسة».

قالت بغضب وما لبث ان لاحظته يبتسم فابتسمت.

«الآن انت افضل. لنبدأ مجدداً بصفاء».

اختياره للكلمات من اجل ارضائها اراحها. شعرت انه كاد ان يعتذر ولكنه لم يفعل. تناول علبة سكائر وقرّبها منها قائلاً:

«دخني عليها تنجلي».

ثم قرّب ولاعته لشعل سيكارتها فلاحظت يديه القويتين والقليل من الشعيرات من كمي القميص وكذلك زرين ذهبيين ربما من عصر النهضة. كم هو غريب هذا الرجل امامها، فكرت فانيسا، وهو ينفث دخان سيكارته. يبدو قاسياً كالحديد ومع ذلك يجمع ذوقاً وفناً رفيعين.

عادت تتحدث عن العمل بحماس. اقترحت ان يطلق على الغرفة الصينية اسم كونفوشيوس وقالت:

«لا اظن ان احداً لم يسمع بهذا الاسم، ولا يعرف شيئاً من اقواله».

«تقصدين ادانته لممارسة دفن النساء والخدم احياء مع سادتهم الرجال!».

ابتسمت فانيسا لانه فهم عليها بسرعة. وقالت:

«انه اقترح دفن الأواني والخزف عوضاً عن الاحياء. وعبر كونفوشيوس وصلتنا عادات المعيشة في تلك الفترة من الصين القديمة. دفنوا مختلف اشكال الأواني والخزف التي تستعمل في البيوت وهي بالغة الذوق في الزخرفة. وانت يا برانت عندك مجموعة مهمة جداً منها في الغرفة الصينية».

«تبدين اهتماماً شديداً في الأعمال الصينية. انا اعرف مجموعة على بعد خمسة اميال من هنا اهم بكثير من المجموعة التي عندي. هل تودين رؤيتها في يوم ما؟».

«اتمنى ذلك. ارجو ان تعطيني العنوان وانا اذهب في اقرب فرصة».

«يجب ان ترافقيني ان رغبت في الدخول. فالمجموعة ليست مفتوحة للجمهور. ولكن جوردن باتكس لا يمانع في استقبال زوار طارئين شرط ان يأتوا مع شخص يعرفه. لأن المجموعة لا تقدر بثمن. وهو لا يتحمل حصول اي حادث لها بسببه اشخاص لا يعرفون كيف يمسكون القطع الصينية الهشة. سنذهب يوم الاربعاء بعد الغداء. العمل في المقلع لا يكون متعباً. واظن جيرارد يمكن ان يتولاه وحده».

شكرته على العرض. فقال:

«انا في كل حال احذرك من صراحة جوردن. وانصحك ان وجدت معلوماته تفوق معلوماتك ان تلزمي الصمت وتستمعي، لانه يكره الجدال».

٦- قراءة في كف القلب

الاثنين والثلاثاء مرّا بهدوء. وجاء يوم الاربعاء. وفيما كانت فاليسا تقوم بنزهتها الصباحية في الحديقة فكرت انه بالكاد مرّ اسبوع على وجودها في راليغز. ومع ذلك تشعر انها منذ زمن بعيد في القصر الجميل والحدائق الغنّاء.

«انتظري حتى تثلج هنا».

قال لها جيرارد عندما عبّرت له عن شعورها تجاه المكان الذي يحبه.

«تشعرين وكأنك معزولة عن العالم. لا بريد يصل بانتظام. والسيارات تحتاج ان تحفر الطريق امامها لأن الجرافات بطيئة في الوصول. والقصر كله يتحول الى صندوق كبير مثلج. أنا اتنازل لك

عن مكاني هنا، اذ افضل مكاناً عصرياً يلائم الناس المتمدنين».

«تعني أنك تحب البيت - العلبة في شقق المدينة؟».

«لا بأس، لكل منّا ذوقه».

«في كل حال أنا أوافق معك على نقطة واحدة وهي ان يكون عندك بيتك الخاص يا جيرارد».

«هل افهم من كلامك انك تطلبين يدي؟ أنت اصبحت فتاة تعبر عن رغباتها مباشرة».

قال مازحاً ثم نظر الى ساعته:

«سأتأخر ان لم اتحرك الآن. لا بد ان برانت سبقني. أرجو ان تخبري والدتي بأني لن اكون حاضراً على العشاء الليلة. نسيت ان اخبرها ذلك خلال الفطور».

لوّح لها بيده وغادر المكان. ودخلت فانيسا غرفة المكتب لتجد رزمة البريد الكبيرة في انتظارها. جلست الى مكتبها وراحت تفتح رسائل العمل وتضع رسائل برانت الشخصية على مكتبه. وجدت ثلاث رسائل لنورا فحملتها اليها في غرفة المكتبة.

كانت نورا تجلس في مقعدها المعتاد قرب المدفأة، مشغولة في وضع لائحة المدعوين والمدعوات الى حفلة عشاء تنظمها في القصر الاسبوع المقبل. تناولت الرسائل من فانيسا شاكرة وقالت:

«اظن أنك وبرانت ستخرجان اليوم بعد الظهر. مفيد جداً ان تغيّري اجواء العمل. الى أين انتما ذاهبان؟».

«برانت سيأخذني لأرى مجموعة التحف لدى بانكس».

«كان يجب ان احزر فان رجال الأعمال مثلكما لا يخرجان الا في مشاوير عمل. هل تهتمين بالتحف يا فانيسا؟ ليس من الطبيعي لفتاة مثلك وفي عمرك ان تنغمس في العمل كما تفعلين».

«نيفيل كان يقول لي انه سيأتي يوم تتشتت فيه أفكاري فلا استطيع

فعل ما اقوم به اليوم. لذلك أنا استفيد من كل فرصة قبل ان يأتي اليوم الذي تتشتت فيه افكاري فلا استطيع التمتع بالتحف».

وماذا فهمت من كلامه عن تشتت الأفكار؟ يا عزيزتي الا تفكرين أبداً بالأشياء التي تفكر فيها كل فتاة مثل ان تكوني زوجة وأم؟».

واحياناً افكر في الموضوع. ولكن امامي وقت طويل لهذه الأمور».

عادت فانيسا الى مكتبها تتابع العمل. ولكنها لم تتمكن من التركيز. وجدت انها تستعمل الممحاة مراراً لأخطاء ترتكبها. فتوقفت عن العمل وجالت بنظرها عبر النافذة تحاول وضع ترتيب لافكارها المتضاربة.

عاد برانت الى القصر من المقلع نحو الظهر. غيّر ثيابه الرسمية وارتدى ما اعتبره مريحاً اكثر. وبعد الغداء كانت فانيسا الى جانب برانت في السيارة. في الطريق قال:

وان الطقس في مثل هذه الايام لا يكون مشمساً عادة. ويجب ان نستفيد منه، لأن بينيت يتوقع تغيراً قريباً في الطقس. ولا اظن انه يخطىء. ان الرجل ظريف».

«ألهذا السبب تحتفظ به في رالينغز؟».

«بينيت يعمل مع آل مالوري من قبل ان أولد. انه أقدم عامل في القصر. أقدم من ابي. ورالينغز بيته وسيكون كذلك حتى آخر لحظة من حياته. اللاانسانية ليست من طبعي كما يمكن ان تظني يا آنسة!».

«وانا لا اظن ذلك ابداً».

قالت وهي تشعر انها بدأت مشوارها بداية سيئة وانها توقعت معاملة افضل. وأضافت:

وليس الآن في كل حال».
اضحكته ملاحظتها. وشعرت بارتياح بعد ارتباك. وخيّم المرح عليهما حتى وصلا الى منزل جوردن بانكس. صاحب البيت نفسه فتح لهما الباب. بدا في منتصف الخمسين من العمر. نحيل الجسم يضع نظارات سميكة على ارنبة انفه الطويل، طابع سلالة عريقة.
قدّم برانت رفيقته الى جوردن بانكس الذي رحب بهما ببرود وقادهما الى قاعة خلفية حيث التحف. شعرت ان الرجل من جامعي التحف الذين لا يتمتعون باستعمال تحفهم. لا بد انه يأكل ويشرب بالأواني الزجاجية البسيطة فلا يغامر باستعمال القطع الصينية الغالية التي يملكها. وفكرت ان الوضع في رالينغز يختلف تماماً، اذ ليس من اشياء لا يجوز لمسها. أواني الطعام من التحف التي تعود الى اكثر من مئة سنة الى الوراء، ومفروشات غرف الاستعمال لا تقل أهمية عن تلك التي تعرض للجمهور. ولا شعورياً وجدت انها تجري مقارنة بين الرجلين أمامها.
لاحظت في القاعة ثلاث خزانات صينية، لا بد انها من عصر تانغ، فكرت فانيسا، في الأولى، حصان مع فارسه في وضع متراجع، في الثانية حصان من دون فارس متأهب وينفث لهباً. وفي الثالثة فتاة ترقص. بدت القطع الثلاث بالغة الاتقان والروعة.
«من عصر تانغ بين القرنين السابع والعاشر».
قال جوردن في نبرة مهنية جافة:
«والحصانان أخذا من قبر واحد. والفتاة من قبر مختلف في وقت متأخر عن الأول».
وتحرك نحو خزانة أخرى من دون ان ينتظر رد فعل زائريه. دلّهما على اناء وقال:
«واعتبر هذا الاناء تحفة مجموعاتي. اتساءل ان كنت تعرفين الى اي

عصر يتمي يا آنسة بيدج؟».

درست فانيسا القطعة من خلف الزجاج وراحت تدقق في الخطوط المتوازية والألوان الحالة. وأجابت من دون عناء:

«انه عصر سانغ، بين العام ٩٦٠ و١٢٧٩، اذ ان الخزف في تلك الفترة وصل الى مستوى الكمال».

ابتسم برانت. وبدا الاهتمام في عيني صاحب البيت الذي قال:

«تبدين مطّلعة على تاريخ الصين. هل غصت بعيداً في دراسة تحف الشرق الأقصى؟».

«الى البعد الذي كان يسمح به وقتي. امامي الكثير للتعلّم».

«كلنا نحتاج الكثير للتعلّم. ولكن الفترة في مصلحتك يا عزيزتي. تعالي. اريد ان اعرف كمية معرفتك للاشغال الصينية».

وجدته يغير تصرفه من البرود الى الاهتمام. وخلال ساعة غيّرت فانيسا رأيها بالرجل ووجدته مثيراً. فتح لها الخزائن وسمح لها بلمس اي قطعة تريدها، مستمعاً الى اي شيء تقوله باهتمام واحترام، صبره في الاجابة على اسئلتها المتعددة فاجأ برانت. الأخير لم يتحدث الا قليلا. وكانت فانيسا تلاحظ نظراته عليها وهي تنطلق في الحديث. وشعرت لأول مرة انها لا تنزعج من هذه النظرات.

المجموعة كانت رائعة. سمعت بها فانيسا من قبل ولكنها لم تتوقع ان تسمح لها الظروف برؤيتها. فيها قطع من كل عصر تقريباً من تاريخ الصين. الكثير منها مزين بالرسم التقليدي للتنين وطائر الفينيق وتمثل الامبراطور والامبراطورة. .

بعدما انتهوا من الجولة في القاعة. سحب جوردن كوبين من احد الرفوف وقدمهما لزائريه وهو يقول:

«الأكواب نفيسة انها من عصر مينغ».

دققت فانيسا فيهما لتدرس تفاصيل العمل اليدوي. في الوهلة

الاولى بدا الكوبان وكأنهما نسخة طبق الأصل من الخزف الابيض وعليهما رسوم لتنين احمر بين امواج البحر الأزرق. ولكن بعد التدقيق لاحظت القليل من الفوارق. احد الكوبين يميل لونه الابيض الى الأزرق، والنسيج يكاد يختلف. فقالت معجبة باكتشافها:

«هذه نسخة يابانية».

ابتسم جوردن وقال:

«نعم، هي كذلك. اليابان كانوا اذكياء ولكنهم كانوا يفتقدون الى الكمال الموجود في الأشغال الصينية».

وهنا ربت برانت على كتف فانيسا مهنئاً وقائلا:

«انني لم ألاحظ الفرق في المرة الاولى التي أراني فيها القطعتين. أنت ذكية جداً يا فانيسا».

وسألها جوردن:

«كم سنة اشتغلت في التحف؟».

اجابت:

«اثنتا عشرة سنة».

ارتفع حاجبا جوردن في تعجب ظاهر وقال:

«اذن كنت طفلة معجزة. لا بد انك تعلمت على يد استاذ استثنائي!».

وعندما ودّعها على الباب قال لها:

«تعالي مرة ثانية كلما رغبت في المجيء. واذا احتجت الى عمل في اي يوم من الأيام ارجو ان تبلغيني الأمر».

داخل السيارة قال برانت:

«أثرت اعجاب الرجل. قليلون جداً يحظون بدعوة لزيارة ثانية. ومعدودون يحظون بدعوة في اي وقت يرغبون، مثلك».

وبعد قليل سألها:

«هل أنت نادمة لأنك لست قادرة على قبول عرض العمل معه؟».

هزت رأسها بالنفي وقالت:

«كلا، ابداً. المجموعة رائعة. وجوردن بانكس رجل استثنائي. ولكني لست راغبة في التخصص في مجال واحد من مجالات التحف المتعددة».

ابتسم برانت وقال:

«هذا يبدو مناسباً جداً. لأني لا أرغب اطلاقاً في تحريرك من الاتفاق بيننا».

وسألته:

«هل يعيش السيد بانكس وحده؟».

«عدا عن مدبرة البيت، نعم هو يعيش وحده. لا يشعر بحاجة الى رفيقة. مجموعته، والاضافة عليها، اهتمامه الوحيد في الحياة».

«ولكن هناك أشياء مهمة في الحياة غير التحف».

قالت فانيسا وهي تفكر في كلام نورا في الصباح. واذ به يفاجئها بالقول:

«اذن انت تدركين ذلك؟ كنت بدأت اتساءل».

وبعد قليل اقترح:

«لنجعل خروجنا اليوم مليء بغير زيارة جوردن. هل سمعت بمغاور بلوجون؟».

«طبعاً سمعت. هل هي قريبة؟».

«ميلين فقط. اظن اننا نستطيع زيارة واحدة منها. ستسرّين بالزيارة».

اختار برانت واحدة من مغاور ثلاث اعتبرها الأكثر اثارة واهمية. وبدا انهما وحدهما مهتمان بالزيارة اذ لا احد غيرهما كان موجوداً.

وعليهما الانتظار ليحضر اناس غيرهما فيأخذهم الدليل في جولة. ولما لم يحضر احد، اتفق برانت والدليل ان يأخذهما في جولة خاصة على حسابهما. وهكذا كان.

داخل المغارة كان الجو رطباً وبارداً. ومصابيح الكهرباء الموزعة في الداخل لم تساعد في تخفيف البرودة. الدليل كان رجلا في منتصف العمر من سكان الناحية. حذّرهم من التزحلق ودعاهم للانتباه. ثم تقدم امامهم وانطلق في القاء محاضرة عن الأشياء التي يرونها ولكن برتابة ومن دون حماس، وصدى كلماته تتوزع في المغارة. بعد بضع دقائق قررت فانيسا ان لا تنصت اليه بل تترك نظراتها تجول في حرية في المكان لترى الأشكال المكلّسة بفعل المياه في زخرفة جميلة وناعمة.

برانت مسكها من ذراعها مساعداً اياها على تجنب الأطراف الزلقة باهتمام كبير. دفء اصابعه خفف من برودة المغارة كلما توغلا فيها. كان يقول بعض الملاحظات كلما لفته منظر فات فانيسا، ووافقها الرأي ان الدليل ممل.

بعد مرور بعض الوقت، ومن دون انذار، انقطعت الكهرباء وخيّم على المغارة ظلام دامس. وفي سرعة احاط برانت بكتفَيْ فانيسا قائلا:

«لا تخافي، ربما احترق سلك كهرباء».

صوت الدليل بلغهما من بعد قصير.

«يبدو ان في المحول عطلا. وانا لم أجلب معي بطارية ضوء. هل تغامران في العودة معي في الظلام ام تنتظران حتى أعود بالبطارية؟ أنا اعرف الطريق غيباً ولن يطول تأخري».

«سننتظرك».

قال برانت، مقرراً عن كليهما.

تحرّك الدليل، وسمعا صدى خطواته في المغارة تبتعد الى ان

اختفت نهائيا. وبقي صوت قطرات الماء تنزل قطرة قطرة.

«هل انت خائفة؟».

سألها برانت وأضاف:

«انت ترتجفين مثل ورقة».

بدأت عيناها تعتادان الظلمة، ونظرت اليه فتمكنت من تحديد شكل وجهه من دون الملامح.

«اشعر وكأننا دفنّا في قبر».

قالت محاولة المزاح. سألها ان كانت ترغب في سيكارة للتخفيف من وطأة الظرف، فوافقت. رفع ذراعه عن كتفها، وشعرت بعلبة السكائر الفضية الباردة بين يديها سحبت سيكارة، وهو تناول واحدة له. اشعل ولاعته، واذ بالمكان يمتلىء بخيالات متحركة راقصة. وعندما اشعل السيكارتين واطفأ الولاعة، عاد المكان يغرق في الظلمة.

قال:

«هناك مصطبة خلفي نستطيع ان نجلس عليها».

وتحركا معاً قليلا وجلسا. ثم خلع سترته ووضعها على كتفيها وسط اعتراضها.

«انها سترتك، ستبرد انت، وستتسخ السترة و...».

«كفّي عن الثرثرة والبسيها. انا لا أشعر بالبرد. وأظن ان السترة يمكن غسلها أليس كذلك؟».

شعرت بالدفء. وفي صمت راحت تدخن سيكارتها. واذ به يفاجئها بالسؤال:

«ماذا كنت تفعلين يا فانيسا في أوقات فراغك؟ لا أظن انك امضيت هذا الوقت وأنت منكبة فوق الفهارس او تزورين المعارض والمتاحف. أنا عرفت منك انك لم تقعي في الحب. ولكن بالطبع كان

يوجد صديق يأخذك الى مرقص او الى مسرح؟».

فكرت انه يسأل ربما من أجل ايجاد موضوع يتحدثان فيه لقتل الوقت. اذ لا يمكن ان يكون مهتماً بحياتها الخاصة الماضية. ولكن اجابت:

«كان هناك شخصان. ولكن لم تطل علاقتي بأي منهما. ربما لم يجداني مثيرة للاهتمام!».

«صحيح؟».

سأل متفاجئاً وأضاف:

«أنا كنت اهتم...».

وانقطعت العبارة نتيجة عودة الضوء الى المكان.

«حسناً. الآن نستطيع ان نعود».

قال وهو يرمي عقب السيكارة جانباً.

سألها:

«هل أنت مستعدة؟».

وقفت وبدأت تمشي امامه، فأوقفها قائلا:

«ثمة أوقات على الرجل ان يتولى القيادة».

وأضاف وهو يضحك:

«وعلى المرأة ان تعرف كيف تستند الى الرجل حتى لو كانت تدّعي ذلك. على الأقل من أجل رفع معنوياته!».

التقيا بالدليل في مدخل المغارة. وبدا انه انزعج لأنهما لم يرغبا في متابعة الرحلة داخل المغارة. ولكن ما لبث ان انفرجت اساريره عندما رأى حجم البقشيش الذي اعطاه اياه برانت. استقبلهما دفء الشمس وبريقها في العالم الخارجي نظرت فانيسا الى ساعتها وفوجئت ان الوقت لم يتجاوز الرابعة بعد الظهر. بدت وكأن ساعات وساعات مرت على مغادرتهما رالينغز.

«سأتأخر على الشاي».

قالت فانيسا.

برانت ردّ بهدوء:

«أنا قلت لنورا اننا سنشرب الشاي في الخارج. هناك مقهى صغير لا يبعد كثيراً، يديره شخصان عزيزان جداً، يعدّان كل الكعك والفطائر بأيديهما. فطائرهما أطيب من تلك التي تعدّها امي، ولكني لم اجرؤ ولا مرة على البوح لها».

المقهى كان مزدحماً بالناس مع انه يقع في طريق فرعية. وبدا لها ان برانت حجز طاولة قرب النافذة مسبقاً.

لاحظت التكريم الذي لقيه من العاملين في المقهى فقالت:

«يبدو انك تأتي كثيراً الى هنا، هل هو مكانك المفضل الذي تلتجىء اليه؟».

«ومن ماذا اهرب كي التجىء الى هنا؟».

حارت جواباً لأنها لم تجد سبباً وجيهاً دعاها لطرح السؤال العفوي قالت:

«لا اعرف. ربما تأتي عندما ترغب في تغيير الرتابة».

«ربما معك حق. اي تغيير يكون مفيداً. هل وجدت التغيير اليوم مفيداً لك خارجاً عن الرتابة يا فانيسا؟».

«جداً، على الرغم من اني لا اجد العمل في رالينغز رتيباً. هناك دائماً اكتشافات جديدة لي. أنا ممتنة جداً للفرصة التي منحتها لي في العمل بالتحف».

«هل يمكن ان تنسي غرامك بالتحف لبضع ساعات؟ أنا لا اتوقع ثناء، اذ اني احصل منك جهداً اضعاف ما ادفعه لك من راتب».

شعرت انه منزعج ولم تعرف السبب. ماذا تراه توقع منها أن تقول؟ رغم غياب الرسميات في تجوالها بعد الظهر، يبقى هو رب

عملها ومديرها وهي تشعر نحوه ببعض... الرهبة! هل تراها الكلمة الصحيحة التي تعبر عن شعورها نحوه.

وصل الشاي في ابريق مزين. ومعه صحن من الفطائر الطازجة الساخنة وفوقها تسيل الزبدة الصفراء. وجدتها لذيذة مثل وصف برانت لها.

عندما بدأت في أكل الفطيرة الثالثة قالت:

«يبدو اني سأسمن كثيراً هنا، ولن يأتي اليوم الذي انهي العمل فيه في رالينغز الا وأكون اصبحت ضعفين».

«لا اظن ان يوماً ما يمكن ان تصبحي سمينة. انت لا تملكين البنية العظمية الاساسية للامتلاء».

مدّ يده نحوها ومسك يدها ثم بسطها على راحتها وحاول أن يقرأ كفها.

«يدك جميلة فانيسا أنت حساسة وذكية. ماغي علمتني كيف اقرأ الكف عندما كنت ولداً. أرى عمراً مديداً أمامك وثلاثة أطفال».

«يجب ان أعثر على زوج اولاً!».

قالت مبتسمة وهي تشعر أن الاحمرار يملأ خديها.

«طبعاً».

هزّ رأسه، ثم سحب يده ملاحظاً الوقت على ساعتها، وأضاف:

«انها الخامسة وعشر دقائق. أظن يجب ان نعود. اذ أمامي عمل نحو السابعة خارج رالينغز».

الطريق الى البيت كانت سريعة ولكن مريحة. كان يدلها الى الأماكن الملفتة في المنطقة حيث يمرّان. ونصحها ان تزورهم عندما تسنح لها الفرصة.

استقبلتهم امي في القاعة الكبرى. قالت:

«ان الآنسة مويا حضرت لرؤيتك. لم تنتظر. طلبت ان تتصل بها

في البيت عندما تعود».

«الأرجح انها تريد أن تسأل شيئاً بسيطاً».

وتابع لفانيسا:

«حياة مويا سلسلة عقد. هي لا تعرف كيف تتخذ قرارتها لوحدها».

دخل برانت الى المكتب ليجري الاتصال الهاتفي. وتابعت فانيسا طريقها الى غرفتها. شعرت فجأة انها متزعجة ومتعبة. وان صداعاً في رأسها يدنو فأسرعت في تناول حبة قبل ان يستفحل.

٧- خيانة غير متوقعة

جاء تشرين الأول بارداً وممطراً. رياح هوجاء سيطرت على الوادي مزيلة أكثر اوراق الشجر. الحقول تحولت الى برك ماء، والخراف انتقلت الى مراع منحدرة في مجموعات بدت كثيفة الصوف، رطبة وموحلة.

والبقاء في المنزل لم يكن مزعجاً لفانيسا. كانت تقدمت في الفهرسة وتجد كل الاعمال المنوطة بها مفهومة. فكرت ماذا يحصل ان انتهت من العمل قبل انتهاء الأشهر الستة؟ هل يبقى برانت في حاجة اليها ام يستغني عنها وينصحها بالبحث عن عمل آخر؟ ان العقد بينها واضح وملزم للطرفين. ولكنها كانت تعلم انها لن تلزمه به.

في صباح يوم خميس كانت فانيسا تراجع البريد عندما دخلت اليها نورا ومعها لائحة باسماء الضيوف المدعوين الى حفلة العشاء في القصر في الاسبوع المقبل. قالت:

«حفلات العشاء هي الجانب الاساسي من تسليتنا خلال الشتاء. نقيمها مرتين في الشهر على الاقل».

وناولتها دفتر العناوين مع اللائحة وقالت:

«ارجو ان لا تجعلي الرسائل رسمية جداً، انهم جميعاً اصدقاء حميمين. ربما كان افضل لو اكتب لهم الدعوات بخط يدي ولكن عليّ كتابة رسائل شخصية كثيرة».

ونظرت الى الملفات امام فانيسا قائلة:

«برانت قال انك تقومين بعمل جيد في الفهرسة. الا تتعبين منه؟ الا تملين؟».

ضحكت فانيسا وقالت:

«انا هنا منذ ثلاثة اسابيع فقط ولا اظن ان احداً يملّ خلال فترة قصيرة من عمل يحبه. ان رالينغز تشبه مغارة علاء الدين بما تحويه من تحف. لا استطيع التصديق بأني اعيش في مكان كهذا».

ولاحظت نورا رسالة على مكتب برانت فقالت:

«لماذا تنبهين برانت الى موضوع كهذا؟ ان موسم استقبال الزوار انتهى منذ شهر».

«اعرف ذلك. ولكنه طلب خاص من معلمة في مانشستر كانت ترغب في جلب تلميذاتها خلال الصيف ولكنها لم تتمكن. لذلك ترجونا ان نقبل بالزيارة وان كانت خارج الموسم. وانا فكرت بأن برانت لن يمانع في طلب خاص كهذا».

«اظن انه سيمانع. انه لا يفتح القصر للزوار خارج الموسم الرسمي. ويعتقد ان الخدم يستحقون راحة بعد التعب الذي يعانون منه في الصيف نتيجة اعمال التنظيف عقب هرج ومرج جمهور سعيد».

برانت ردّد الكلمات ذاتها في وقت لاحق عندما فاتحته فانيسا بالموضوع قال:

«نحن دائماً نتلقى طلبات مماثلة من فئات ترغب في معاملة خاصة. ولكن القصر يفتح للجمهور فقط لأن ابي بدأ هذا التقليد. وخارج هذا الموسم انا احب الخلود الى الحرية الشخصية في بيتي».

«ولكن هذا الطلب مختلف. انه من صف يدرس مرحلة مهمة من تاريخ انكلترا. كيف تقبل ان توقف مسيرة التعليم؟».

«ان مساهمتي او تمنعي لا يضيف او ينقص شيئاً في مسيرة التعليم. اضافة الى ذلك فالمعلمة تقول في رسالتها انها ترغب في الحضور خلال الاسبوع المقبل، هل تقترحين ان اعطل يوماً بعد الظهر وادور مع حفنة من تلميذات المدرسة اللواتي لا اظن انهن مهتمات بالموضوع قدر اهتمام معلمتهم».

«ارجوك لا تعطل يومك. انا استطيع ان اتدبر الامر وحدي».

«وارى انك اعددت كل شيء مسبقاً. قررت ان يحضروا مهما يكن الامر! وطلب موافقتي ليس الاّ من باب اللياقة».

«انه بيتك. ولكن هل ستسمح لهم بالحضور؟ برانت، أرجوك!».

حاولت ان تتملقه بدلال ونجحت.

«كيف يمكن ان اعترض بعدما طرحت الطلب من هذه الزاوية؟ يمكنك ان تكوني مقنعة جداً عندما تضعين قلبك في اي قضية. قولي لي هل هذا الموضوع يهمك شخصياً ام انه اثار فيك الرغبة في خوض معركة معي؟».

«كلا، ابداً. انا فقط لم ارغب في تسفيه المعلمة الآنسة بيرسون هل يمكن ان اكتب لها وأبلغها ان تحضر في الاسبوع المقبل؟».

«اذا رغبت في ذلك».

وانتظرها لتجلس خلف مكتبها وتحضر الآلة الكاتبة لتعد الجواب. وقال وهو يغادر الغرفة بخبث ظاهر:

«سأترك الامر لك كي تبلغي امي ان تعد الشاي والسندويشات لاحدى وعشرين فتاة في اليوم الموعود. اظن ان تعليقاتها ستكون مفيدة».

وادركت ماذا عنى في كلامه عندما ابلغت امي في وقت لاحق. اذ ان مديرة البيت استقبلت الخبر بانزعاج شديد قالت:

«طيلة وجودي هنا لم يفعل السيد برانت شيئاً كهذا من قبل! انا انتهيت مؤخراً جداً من اعادة القصر الى وضعه الطبيعي بعد صيف حافل بالزوار. والآن تواجهيني بطلب كهذا! أولاد مدرسة؟ ماذا جعله يقبل بهم؟ لا استطيع التفكير في حالة المكان بعد أن يغادرنه، ستكون بصمات اصابعهن في كل مكان، اغراض في غير مكانها. . . ».

«لسن اولاداً، بل فتيات راشدات في الخامسة عشرة من عمرهن».

وامي لم تكن مستعدة ان تنهزم في الحرب الكلامية فقذفت ما

تيسر عندها من عبارات الانزعاج وغادرت غرفة المكتب.

في الثانية والنصف بعد الظهر، اطلت مويا برأسها من باب غرفة المكتب وقالت لفانيسا العاملة بجد على الآلة الكاتبة.

«الا ترتاحين ابداً؟ ستتحولين الى خرقة بالية ان استمررت هكذا!».

لم تستطع فانيسا ان تحبس ابتسامتها للفتاة الممتلئة حيوية على الرغم من انها كانت ترغب ان لا يزعجها احد. مستحيل ان لا يحب احد مويا. روحها حية دائماً وطبعها دافىء ومشمس. تستطيع فانيسا ان تفهم لماذا يحبها برانت. ولكن ربما تكون صغيرة له.

وقالت فانيسا مشيرة الى العمل.

« انها الطريقة الوحيدة لتمضية الوقت في طقس ممطر».

وتساءلت في نفسها ماذا تفعل مويا بايامها.

نظرت مويا اليها متعجبة وقالت:

«ولكن الطقس صاحٍ. هل تظنين انني احضر على الحصان ان كان الطقس ممطراً؟».

واستدارت فانيسا بكرسيها لتنظر عبر النافذة وتقول:

«اذن توقف المطر. جميل جداً».

«تعالي معي لنركب الخيل ونستفيد من الطقس».

«وماذا عن العمل أمامي؟».

«اتركيه. ان برانت لو كان هنا يكون اول من يوافق على تنشقك بعض الهواء المنعش».

ترددت فانيسا قليلاً ثم قالت:

« حسناً. ساحضر. ولكن ارجو ان لا تبعد كثيراً. انا لم اعتد بعد على سرج الحصان».

وكانت نزهة ممتعة، اعترفت فانيسا لنفسها. شعرت انها تلميذة هاربة من الصف تتمتع بوقتها.

وعندما عادتا الى الاسطبل ترجلتا تاركتين جورج يهتم بحصانيهما. وتوجهت مويا الى ملجأ حصان برانت. تحرك فايان في ملجأه مسنداً رأسه على الباب النصفي سامحاً لمويا ان تربت على رأسه وتفرك جبينه.

راقبتها فانيسا. انها لم تكن واثقة من الحصان. كان يشبه معلمها كثيراً. ضخم، واثق، وغير ممكن التنبؤ بتصرفاته.

سألت فانيسا:

«هل سبق أن امتطيت فايان؟».

«مرة واحدة حاولت قبل ثلاث سنوات. ولكن فشلت».

«ماذا حصل؟».

«راح يقفز ويدور الى ان تعبت فترجلت وما عدت ارغب في ركوب اي حصان. انه لا يفقد اعصابه عادة. ولكن ان فعل فانه مخيف. لم استطع الجلوس في راحة لمدة اسبوع».

وتابعت تفرك جبين فايان، والحصان يبدو مطمئناً وراضياً.

وعندما تكلمت مويا من جديد طرحت سؤالاً لم تتوقعه فانيسا اذ قالت:

«هل تظنين اني صغيرة على الزواج؟».

مرت دقيقة وفانيسا تجمع افكارها لتتمكن من الاجابة:

«ان كنت تقصدين سنوات العمر فالامر ليس مهماً. كثيرات يتزوجن في مثل سنك، وكثيرات أصغر منك».

«انت اكبر مني قليلاً، هل ترغبين في الزواج؟».

«ثمة قضية صغيرة، ايجاد الزوج المناسب اولاً. من الطبيعي ان اتزوج في يوم من الايام ولكني لست مستعجلة».

«انا مستعجلة. انا مستعدة للزواج غداً ان كنت قادرة. ولكن ابي وبرانت يظنان ان الفتاة يجب ان يكون عمرها اثنتين وعشرين سنة قبل ان تتزوج. ماذا استطيع ان افعل تجاه ذلك؟ عليّ ان انتظر سنة اضافية قبل ان اتحكم بالامور».

حتى في ذلك الوقت ستكون الامور في يد برانت، فكرت فانيسا. بدأت تفهم. ان برانت راغب في الزواج من هذه الفتاة ولكنه ينتظرها ان تنضج. هو راقبها تكبر من طفلة الى شابة جميلة، وحتماً كان دائماً يفكر بالزواج منها ولكن عندما يتمكن من عجنها وتحويلها الى المرأة التي يريد. سنة اضافية ستكون كثيرة لمويا هي التي انتظرت كل العمر. ولكنها قليلة لبرانت في ان يتمكن من تغيير طباع مويا. ومع ذلك لم تتمكن الاّ ان تتذكر الكلمات التي قالها لها في السيارة ذلك السبت الاول، ان الحب لا يهتم بالوقت او بالمكان. يحضر عندما لا تتوقعينه. كيف يمكن ان يخرج بهذه الفلسفة وهو يعدّ بهدوء وانتظام مشاريعه مع مويا؟

عاد جيرارد من المقلع باكراً بعد ظهر اليوم التالي، ووجد فانيسا على سلالم المكتبة تتفحص رسوم السقف.

«لا تقولي لي ان هذه الرسوم ستدخل ايضاً في الفهرسة؟».

«طبعاً ستدخل. انها نقوش مهمة».

ثم سألته.

«هل عاد برانت ايضاً؟».

«كلا. سمعته يقول شيئاً عن موعد مع مويا ووالدها. واتوقع ان يكون معهم على العشاء ايضاً».

«آه».

علّقت وبدت نبرة صوتها مختلفة. حدّق فيها جيرارد بخبث

وقال:

«تبدين وكأنك اصبت بخيبة امل. لا تعترفين لي انك وقعت في حبه يا فان؟».

«لا تناديني باسمي مختصراً هكذا».

ردّت بعصبية وانزعاج ظاهرين الامر الذي اثار جيرارد فقال:

«هل انزعجت لاني اصبت نقطة ضعفك؟ لن تكوني الاولى يا عزيزتي التي تقع في غرام برانت. يبدو ان النساء يجدن في ابن خالي الاغراء الذي لا يقاوم. في كل حال هو صيد ثمين خصوصاً بالمال الذي يملك، ام انك تحبينه لشخصه لا لماله؟».

«ارجوك يا جيرارد ان توقف هذا الكلام».

قالت في نفاد صبر غير اعتيادي. ثم اضافت:

«كلا، انا لم اقع في غرامه».

«اعتذر ان كنت ازعجتك. في كل حال انا اظن انك منطقية، واكثر واقعية بحيث لا تقعين في المستحيل. عندما تقعين سيكون مع شخص مع محيطك، شخص موثوق به وذكي ومجدّ في عمله».

«اذن انت تجيت مني».

قالت تتعمد ايذاءه.

«اصبت يا عزيزتي فانا احمل كل الصفات السيئة».

وبدا انه تعب من الموضوع وانه يريد شيئاً آخر، قال:

«فانيسا، هناك حفلة راقصة في فندق قريب هذه الليلة، هل تذهبين؟».

تردّدها لم يطل. برانت لن يعود الى البيت قبل وقت متأخر. ولا شيء يمنعها من الذهاب.

فقالت:

«احب ذلك. ولكن احذرك، انا لم ارقص منذ زمن بعيد. ربما لا اصلح شريكة في الرقص».

«ليس مع العم جيرارد!».

وابتسم وهو يضيف:

«اذن نلتقي في السابعة. سنتناول وجبة باكرة قبل الذهاب».

كان ينتظر في القاعة الكبرى عندما نزلت فانيسا في السابعة، حلوة وجذابة في فستان ازرق سماوي لم تلبسه من قبل في رالينغز. صفّر تصفيرة اعجاب طويلة وساعدها في ارتداء المعطف.

في الخارج كان الظلام. والليلة يغيب عنها القمر لتلبّد الغيوم. ومع ذلك تمكن جيرارد من قيادة سيارته بسهولة الى ان وصل الى الطريق العامة الملأى بالاضواء والسيارات. عدة مرات خلال الرحلة تقفز قلب فانيسا من مكانه ليس لأنها شككت في قدرة جيرارد في القيادة، بل خوفاً من السائقين الآخرين الذين قد لا يملكون المؤهلات الكافية في مواجهة الموقف الصعب الذي يضعهم فيه.

«الا تحبين السرعة؟».

سأل ضاحكاً وهو يلاحظ خوفها ثم اضاف:

«لم يحصل لي اي حادث اصطدام في حياتي».

«ربما، ولكن اسأل كم عدد الاشخاص الذين سببت لهم ازمات في القلب».

«ليس من قيادة السيارة، بل من اشياء اخرى تعرفينها يا عزيزتي!».

الفندق كان واحداً من الابنية الحديثة التي تعتبرها فانيسا بشعة. الباحة الخارجية مزدحمة بالسيارات. في الداخل تمكن جيرارد من ايجاد طاولة في صعوبة.

«انا انسى ان الفندق يزدحم بالناس عندما تكون فيه حفلة راقصة. كان يجب ان احجز مسبقاً».

ورفع لائحة الطعام والشراب امامها وسألها ماذا ترغب، وقبل ان يأتيه الجواب قال:

«لنتناول شراباً اولاً ونحتفل بهذه المناسبة السعيدة. ثلاثة اسابيع مرت قبل ان اتمكن من السهر معك».

الطعام كان جيداً، انتهيا منه في الثامنة والنصف وانتقلا بعدها الى قاعة الرقص. بعض من اصدقاء جيرارد كانوا هناك. دعاهم للانضمام الى طاولته. بدوا لفانيسا خلال السهرة ظرفاء، ولكن معجبين بالضوضاء. لم يكونوا وحدهم في اثارة الضجيج، ولم يكن ذلك هو السبب الذي جعل فانيسا لا تتمتع بالسهرة بالقدر الذي توقعت. المكان ليس المفضل لديها. بل المفضل لجيرارد. وهو يبدو في احسن حالاته. راقبته يرقص مع الفتيات الاخريات بعدما اعلمته انها تعبت، وتساءلت عن الطاقة التي يملكها في الاستمرار في الرقص طويلاً.

شعرت انها وحيدة على الطاولة. قامت الى غرفة حمّام النساء ترطب وجهها وتحسن هندامها. غرفة الحمام مطلية باللونين: الزهري والفضي، والغرفة الجانبية للهندام مقسمة الى مكعبات متباعدة، في داخل كل مكعب مرآة وطاولة صغيرة وكرسي. استراحت فانيسا داخل احداها وراحت تنظر الى وجهها في المرآة وتجري بعض التحسينات على زينتها. واذ بها تسمع

صوت فتاتين دخلتا الى الغرفة عرفتهما من نبرة صوتهما، انهما من فتيات الشلة. اختارتا مكعباً يبعد قليلاً عن فانيسا من دون ان تنتبها الى وجودها وتابعتا حديثهما:

«اظن ان الفرقة العازفة الجديدة سيئة. الفرقة السابقة كانت افضل. لا اظن اني سأعود الى السهر هنا. ما رأيك يا فاليري؟».

«الامر يتعلق برفاقنا يا دورين. كنا نأتي الى هنا كل مساء جمعة طيلة الاشهر الستة الماضية. ولا اظن ان احداً سيعترض لتغيير المكان».

توقفتا عن الكلام قليلاً ثم قالتا في خفة:

«ما رأيك بآخر صديقة لجيرارد؟».

«لا تبدو انها من طباعه. شكلها مقبول، ولون شعرها جميل جداً».

«هل تظنين انه مصبوغ؟».

«لست متأكدة ولكن اظنه طبيعياً. لا تبدو انها من النوع الذي يمضي وقته في التسلية بشعرها».

فكرت فانيسا بأن تغادر الغرفة. لكنها شعرت بالتسلية وليس بالانزعاج من حوار صريح عنها. وكان من المستحيل ان تغادر الغرفة من دون ان تلاحظها الفتاتان. صحيح انهما لم تقولا شيئاً سيئاً عنها الا انها لا بد ان ترتبكا من رؤيتها تغادر الغرفة. بقيت جامدة في مكانها، تنتظرهما كي يغادرا قبلها ولكن تابعتا الحديث:

«من هي في كل حال؟».

«آه، انها سكرتيرة ابن خاله. وهي تسكن معهم».

«آه، ملائمة جداً لأبن خاله».

«ولا اظن ان بينهما علاقة خاصة. انت لم تلتقي برانت مالوري. كنت مع جيرارد في المدينة قبل اسبوعين وصادفنا ابن خاله مع مويا. طبعاً توقفنا وتبادلنا التحية، اذ لا يمكن ان يتجاهل ابن عمته وسط الطريق».

«كيف شكله؟».

«انه أحد هؤلاء الاشخاص السمر. شخصية قوية واخلاق. عندما يتحدث ينظر اليك من فوق».

وتابعت حديثها وهي تضحك.

«مويا كانت ذكية. مدّت يدها تسلم وكأنها لم ترني من قبل، وكأن الليلة التي قبلها لم نكن معاً في الشلة نسهر في حفلة بوب فارو. بدت مختلفة تماماً مع برانت مالوري. لم افهم كيف جيرارد تمكن من التصرف ببرود. احب يوماً ما ان ارى وجه ابن خاله عندما يكتشف ماذا بين الاثنين الطائشين جيرارد ومويا!

اقفلت احداهن حقيبة يدها وسألت الثانية:

«هل تغادر الغرفة؟ سيعتقد الاخرون أننا اختفينا نهائياً ان لم نسرع اليهم».

وما ان اقفل الباب خلفها حتى شعرت فانيسا انها تعود الى التنفس ببطء. صدمت مما سمعته ولم تصدق. مويا وجيرارد؟ منذ متى يسهران معاً؟ «الاثنان الطائشان» قالت دورين. ماذا عن برانت؟ وماذا عن لهفة مويا للزواج من برانت؟ ام هي تأمل في الحصول على الاثنين معاً.

تريد زوجاً يؤمن الأمان والثراء، وعشيقاً يدفع عنها مللها!

وفكرت ان هذا التصرف يمكن ان يجري لدى شخص يحسب ببرود وهدوء، وهما ليسا من طبع مويا التي لا يمكن ان تخدع

احداً خصوصاً الرجل الذي ستتزوجه في يوم من الايام!

وشعرت فانيسا رأسها يدور ويدور.

كان جيرارد يجلس وحده على الطاولة عندما عادت فانيسا الى قاعة الرقص، رجله تطرق على الارض مع ضربات الموسيقى وكأنه لا يستطيع ان ينتظر طويلاً بعيداً عن الحلبة.

«اهلاً بك، كدت اظن انك غادرت المكان وتركتني وحدي».

لم تجلس فانيسا بل قالت:

«ان الوقت متأخر. واعتقد انه من المناسب ان نعود الى البيت».

«ماذا؟ الوقت متأخر؟ الساعة لم تتجاوز العاشرة بعد!».

«ومع ذلك اريد ان نذهب».

«كلا يا عزيزتي. ان السهر لليلة واحدة لن يزعجك. تعالي نرقص».

فردت بعصبية ووضوح:

«جيرارد، اما أن تأخذني الآن الى البيت او سأمشي الى هناك. انا سأذهب لأرتدي معطفي وآمل ان القاك في السيارة بعد دقيقتين».

كان يستند الى السيارة عندما وصلت. المرح غاب عن وجهه واستبدله بالغضب. لم يتكلم عندما فتح لها الباب لتجلس، ولا عندما اغلقه خلفها بقوة.

قاد السيارة في سرعة من دون ان يعبر عما يجول في خاطره. واخيراً قال بغضب.

«ماذا حدث هل هناك ما ازعجك؟ الناس معنا على الطاولة سيظنون انني كنت انوي التعرض لعفتك! شعرت انني احمق».

«ربما من الافضل ان تكون انت احمق على ان تجعل الآخرين حمقى».

«وماذا يعني ذلك؟».

«لا شيء. لم اقصد شيئاً».

«بل قصدت. قولي من الذي جعله احمق؟».

«برانت».

فوجيء. ثم هز رأسه.

«اذن هذا هو الموضوع. كان يجب ان اعلم ان فاليري لن تحفظ لسانها».

واضاف ببلاهة.

«وهل الموضوع يهمك الى هذا الحد؟».

«فاليري لم تخبرني. انا سمعتهما يتكلمان. ولا اظن ان الامر يعني الا انني اجد عملك حقيراً في طعن برانت عبر استعمال مويا».

«انت على حق. بدأت العلاقة لطعن برانت. اعترف. كنت آخذها للسهر معي فقط لانني كنت اتسلى بفكرة سرقتها من وراء ظهر ابن خالي. ولكن الامر يختلف الآن، صدقيني يا فانيسا».

«هل تعني بكلامك انك تحبها؟».

«نعم. يحصل ذلك للجميع، للصالحين والسيئين».

نظرت اليه بريبة ثم قالت:

«وماذا عن مويا؟ هل هي ايضاً مغرمة بك؟».

ورأت في عينيه شكاً وترددأ لم تلمحهما من قبل:

«لست متأكداً. فقط اتمنى لو اعرف. بعض المرات اظن انها تلعب بي على طريقتي، تستعملني مثل جواز مرور الى اماكن

تعرف ان برانت لن يأخذها اليها. وعندما تمل سوف تتخلى عني وهي متأكدة اني لن اغامر في اخبار برانت عن علاقتنا فأرمى خارج رالينغز».

«ماذا لو عرف هو؟ لا اظن انك تأمل ان تبقى هذه الاشياء سرية في منطقة يعرف فيها كل الناس بعضهم».

«نحن لا نلتقي في اي مكان قريب من البيت. والخوف الوحيد هو ان يرانا احد اصدقاء برانت معاً في المدينة. وهذا يصعب حصوله لانني لا اعرف احداً من اصدقاء برانت يرتاد اماكن ترتادها نحن».

ثم نظر اليها متسائلاً.

«هل ستخبرينه؟».

فكرت بردّ فعل برانت ان عرف، وقالت بتأكيد.

«كلا لن اخبره».

استمر ينظر اليها وقال بامتنان.

«شكراً. انت فتاة طيبة و. . .».

«انتبه!».

صرخت.

«شخص على دراجة امامك».

وخلال لحظات حصل ارتباك ودوس فرامل وشتائم من جيرارد الذي تمكن من تفادي الاصطدام ولكن عبر النزول في خندق الى جانب الطريق. وللتو غرزت العجلات في الاوحال وكان ارتطام قوي وصوت التواء حديد في هيكل السيارة وأخيراً استقرت في مكانها. وقال جيرارد.

«آه. . . انكسرت السيارة».

كانت سيارته محط فخره وكذلك اعتزازه بقيادة السيارة ولكن

حصل ما حصل واختفى سائق الدراجة في العتمة من دون ضوء في درّاجته ومن دون ان يتوقف ليرى ماذا حصل.

«علقنا».

قال جيرارد لفانيسا التي فتحت النافذة لتتنشق هواء يهدىء من اعصابها.

واضاف:

«تحطمت من جانبي العجلات وخلعت المقدمة».

ثم سألها.

«هل انت بخير؟».

هزت برأسها.

«نعم. فقط ارتجف قليلاً. اظن اننا محظوظون لان الحادث لم يكن اسوأ».

«ان الوضع سيء بما فيه الكفاية. والعجلة الامامية تبدو ملتوية. وحتى لو استطعت الخروج من الخندق فانني لن استطيع الابتعاد بالسيارة. هل لاحظت كشك هاتف على الطريق؟».

«اعتقد اني رأيت واحداً في آخر مفترق. نحو نصف ميل الى الوراء».

«الهاتف سيساعدنا. هل تريدين ان تبقي في السيارة او تأتي معي؟».

«سآتي معك».

نزلت من السيارة وسارت على العشب الرطب بحيث غرزت قدماها في الوحل وامتلأت جواربها بالماء والوحل.

«تعال نسرع في المشي قبل ان تجمد من البرد».

واضافت محاولة المزاح:

«لم اخرج في نزهة مشي في منتصف الليل منذ ايام الدراسة».

«الوقت ليس منتصف الليل!».

أجاب بقسوة وسارا معاً وهو يقول:

«لو استطيع ان اطاله لمزقت دراجته ارباً!».

من كشك الهاتف، اتصل جيرارد بمرآب لتصليح السيارات واتفق معهم على ارسال رافعة. ثم اتصل برالينغز ونظر الى فانيسا في ازعاج ظاهر اذ كيف سيواجه اهل البيت بالخبر؟

«هذا هو الجانب الصعب من المسألة. برانت دائماً يقول اني سانتهي في خندق يوماً ما. آمل ان يردّ باكستر او عامل غيره. لا اظن ان برانت عاد الى البيت».

وعلى الطرف الآخر جاء الصوت.

«هنا رالينغز هول، برانت مالوري يتكلم».

«برانت، انا جيرارد. تعرّضنا لحادث بسيط. هل يمكن ان ترسل لنا سيارة تأخذنا الى البيت؟».

«ماذا تقصد بكلمة تعرضنا؟ انت ومن؟».

«فانيسا معي. وهي متجمدة من البرد. ارجو ان تسرع يا صديقي».

«هل من جرحى؟».

«فقط السيارة».

«اين انتما؟».

واخبره جيرارد موقع السيارة فقال برانت منهياً المكالمة:

«انتظرا عشر دقائق فقط».

بدت الريح تزداد قوة وبرودة وهما يعودان الى السيارة. معطفها بدا خفيفاً، أما حذاؤها فمفتوح وذو كعب عال لا

يلائم اطلاقاً الوضع الذي وجدت نفسها فيه. سارا نحو السيارة وهما يتساءلان من تراه يأتي. ربما جورج، هو يعمل سائقاً عند الحاجة اضافة الى عمله في الاسطبل. وفي اللحظة التي وصلا فيها نحو السيارة المتضررة، برزت اضواء سيارة آتية من بعيد وظهرت السيارة السوداء الكبيرة تلف المنعطف وتتوقف على بعد امتار بسيطة منها.

وشعرت فانيسا ان قلبها يخفق بشدة عندما رأت وجه برانت يطل من خلف المقود.

٨ - وأدركت انها ... مغرمة!

نظر برانت الى السيارة المعطلة وقدر الموقف في لحظات:

«انت كنت تقود السيارة في سرعة»!

قال ببرود واضاف:

«فانيسا، ادخلي الى سيارتي. تبدين منهكة».

ثم اعاد اهتمامه نحو ابن عمته:

«هل اتصلت بمرآب تصليحات؟».

جلست فانيسا في السيارة الفخمة ومدت رجليها المجلدتين نحو المدفأةالدائرة وشعرت ان الدفء في السيارة يتسرب اليها ببطء. عبر الزجاج امامها راحت تراقب الرجلين ينتقلان حول السيارة المتضررة ويتحدثان للحظات ثم افترق برانت عن جيرارد وعاد الى سيارته.

«سينتظر الرافعة لتحضر وتسحب سيارته».

قال برانت وهو يدير محرك سيارته وينطلق من حيث اتى من دون ان ينظر الى الوراء.

«كيف سيعود الى البيت بعدما يضع السيارة في المرآب».

قالت بعد تردد طويل بسبب الصمت الذي خيم على السيارة.

«هذا ليس شغلي أنا. ربما في سيارة تاكسي. هل تشعرين بدفء الآن؟».

«نعم. اشكرك».

وشعرت انها تكذب. صحيح انها اقل برداً مما كانت عليه من قبل، الا ان الرطوبة تخترق عظامها من الجوارب والحذاء المبللين.

بعد عشر دقائق وصلا الى البيت. ساعدها في النزول من السيارة ومسكها من ذراعها. وبقيت يده عليها وهما يدخلان القاعة الكبرى حيث راح توبر يقفز محيياً معلمه.

نظر الى حذائها وجواربها وقال بعبوس:

«انت مبللة جداً. لماذا لم تخلعيها عنك في السيارة؟».

«لم افكر انه علي ان افعل ذلك».

ثم قال في مبالغة لم تصدقها فاتيسا:

«ثمة مرات تستحقين ان اصفعك بشدة!».

وأضاف:

«اذهبي واخلعي الحذاء والجوارب في غرفة المكتب، وسأحضر لك منشفة».

النار كانت تشتعل في مدفأة المكتب. ويبدو ان حطبة جديدة اضيفت قبل وقت قليل. فكرت ان برانت ربما كان يعمل في المكتب عندما اتصلا. جلست على المقعد الوثير امام المدفأة ومدت رجليها بعدما خلعت الحذاء والجوارب وكذلك المعطف. لم يتأخر برانت.

دخل المكتب وأغلق الباب خلفه. ناولها المنشفة وتوجه الى ابريق الشاي المعد مسبقاً قرب المدفأة. ارخت قدميها على السجاد ولاحظت انها تبدو مقشعرة. قدم لها الشاي قائلاً:

«اشربي، سيساعدك على الدفء».

تناولت فنجان الشاي وراحت تشرب من دون ان تجرؤ على النظر نحوه، ولا ان تتذكر الأخبار التي عرفتها الليلة.

«الآن اخبريني ماذا حدث؟ سمعت رواية جيرارد وأريد الآن سماع روايتك».

«ليس عندي الكثير لأقوله. سائق دراجة كان من دون اضواء ظهر فجأة امامنا. لم يكن من مجال امام جيرارد لتفاديه الا النزول في الخندق».

«كان يمكن ان يقود سيارته بغير السرعة المعهودة. وكان يمكن ايضاً ان يركز انتباهه على الطريق امامه. هل كان منتشياً؟».

«كلا لم يكن».

شعرت ان عليها ان تضيف شيئاً تشرح عن سهرتهما معاً. قالت:

«كنا في طريق العودة من حفلة راقصة في فندق الأسود الثلاثة».

رفع حاجبيه وتساءل:

«يبدو انكما كنتما تعودان باكراً. ان الساعة الآن لم تبلغ الحادية عشرة. وجيرارد يتأخر اكثر من ذلك».

«انا كنت متعبة. مرّ علي وقت طويل من دون رقص. واليوم، لغياب العادة، تعبت».

«حسناً».

ولم تتمكن من قراءة التعابير على وجهه ان كان صدّقها أو لا.

حدّق في قدميها العاريتين ثم قال:

«يجب ان تكوني الآن في سريرك. هل انت مستعدة؟».

هزّت رأسها موافقة. ثم مدّت يدها لتتناول الحذاء وتضعه في قدميها، فقال:

«اتركي هذه الاشياء المبللة في مكانها. بينيت سيحضرها لك في الصباح».

مشى حتى الباب وانتظرها حتى تصل. فكرت ان بينيت قد يصدم في الصباح عندما يرى حذاءها وجواربها في المكتب، وتساءلت إن كان برانت سيشرح له او كالعادة سيعتبر ان الامر ليس شغله، مثلما يعتبر ان السير عارية القدمين حتى غرفة نومها لن يؤذيها.

فتح الباب وانتظرها كي تخرج امامه. واذ بتصرف مفاجىء منه يربكها، رفعها بين ذراعيه وحملها الى الخارج. بقيت صامتة وهي تحدق فيه مذهولة.

ابتسم ساخراً وقال:

«لا تنظري الي بقلق هكذا، فلن تسقطي من يدي. لا اظن انك اعتقدت أني سأجعلك تسيرين عارية القدمين على السلالم الباردة».

ومشى بها عبر القاعة فالسلالم بخفة وكأنها طفل صغير بين يديه.

شعرت فانيسا بدفء ذراعيه وخافت ان يلاحظ ارتجافها. فكرت انها تستطيع تخفيف ثقلها ان لفت ذراعيها حول رأسه ولكن شككت في أن ذراعيها تليان لو تجرأت ورغبت في ذلك.

في ممرات الطبقة الثانية حيث السجاد، قالت:

«استطيع ان اتابع طريقي سيراً من هنا. شكراً».

انزلها فوراً. لم تستطع ان تنظر اليه خجلاً.

«ليلة سعيدة».

قالت وكادت تركض في الممر الى غرفتها. اقفلت باب غرفتها خلفها واستندت الى الحائط وهي تستعيد انفاسها وتلهث. وهنا ادركت انها ... مغرمة ببرانت!

كانت الساعة تشير الى العاشرة عندما نزل جيرارد الى الطبقة الارضية صباح السبت وهو يتثاءب. صادفته فانيسا في القاعة الكبرى في طريقها من غرفة المكتبة الى الباحة الخارجية، وفي يدها كتاب. سألته:

«في اي وقت عدت البارحة؟».

«في الثانية بعد منتصف الليل. تعبت جداً حتى عثرت على تاكسي».

بدا متعباً ومتجهماً، وقال:

«السيارة تحتاج الى اسبوع للتصليح. اسبوع كامل. هذا معناه اني سأبقى في البيت كل هذه المدة».

قالت:

«استأجر سيارة، ان كان الذهاب الى المدينة في نهاية الاسبوع يعني لك الكثير».

نظر اليها ببعض الريبة متذكراً تلك اللحظة التي واجهته فيها بالحقيقة في السيارة قبل الحادث بدقائق. قال بمغزى فهمته فانيسا:

«لا يعني لي الكثير ان اذهب الى المدينة في نهاية الاسبوع».

«خذ سيارة اللانسيا اذا شئت. لن احتاج اليها».

قال ذلك برانت مفاجئاً الاثنين من الخلف. التفتا اليه في سرعة وبدت نظراتهما وكأنها مذنبة.

سأله جيرارد:

«هل انت جاد؟».

«ان المزاح في هذا الموضوع لا معنى له».

فشعر جيرارد بارتباك وقال:

«ولكني... بالأمس... ماذا عن الحادث؟».

رد برانت:

«اعتقد ان ما حدث يعلمك امثولة. انت لست احق يا جيرارد وتعرف جيداً مثلما اعرف انك لو لم تكن مسرعاً في قيادة السيارة لكنت تمكنت من رؤية الدراجة، باضواء او من دون اضواء. هل تريد اخذ السيارة الصغيرة ام لا تريد؟».

«نعم، اريد، شكراً يا برانت. سأكون اكثر انتباهاً».

فقال برانت:

«من الأفضل لك ذلك».

وقبل ان يدلف الى غرفة المكتب قال لفانيسا:

«نسيت معطفك في غرفة المكتب ليلة امس».

فانيسا كانت تعرف ذلك جيداً. لكنها كانت تتجنب دخول المكتب ذلك الصباح مخافة ان تجده هناك. الآن لا مهرب امامها سوى الدخول وجلب المعطف. سارت بتردد نحوه. بقي واقفاً مكانه كي يسمح لها بالدخول قبله، مذكراً اياها بتصرفه في الليلة السابقة. ولوهلة تمنت ان يفعل ذلك من جديد. اتعبتها محاربتها لعاطفتها تجاهه، من جهة ترغب ان تلتصق به، ومن جهة اخرى ان تهرب منه. شعرت ان تصرفها ليس طبيعياً وانه لا بد يلاحظها.

المعطف كان حيث وضعته بالأمس، على ذراع الكرسي. تناولته ووضعته على ذراعها وعادت ادراجها نحو الباب. لم يتحرك برانت من مكانه. سألها بهدوء:

«هل شعرت بأي مرض نتيجة تعرضك للبلل والبرد امس؟».

كان عليها ان ترفع رأسها نحوه لتجيب، ان تنظر الى عينيه وتأمل ان لا يكتشف فيهما شيئاً خاصاً مثلما جهدت ان تبدو. اجابت:

«كلا، ابداً اشعر اني بخير».

ووجدته يضيف:

«لم تتناولي الفطور بكمية معهودة».

الا يغيب عنه شيء؟ شعرت برهبة. بدا لها على الفطور صامتاً شارداً في افكاره الخاصة ولم تتوقع ان يكون لاحظها وهي تأكل.

قالت مختلقة عذراً:

«لم اذهب في جولتي الصباحية على الحصان. ذاك كان يعطيني الشهية على الأكل».

«نعم، كان جورج يحضر الحصان دايس عندما مررت به نحو السابعة. انتظرت عشرين دقيقة ولم تحضري هل غرقت في النوم؟».

كلا، فكرت فانيسا. انها لم تغرق في النوم. انها في الاساس لم تنم. وفي السابعة صباحاً استوت في سريرها وهي تحاول ان تجمع شتات نفسها من دون ان تنجح. ولكن اجابت:

«نعم. استيقظت متأخرة».

ثم ركزت على المعطف في يدها مدعية انها تنزع بعض الغبار العالق، وسألته:

«هل تحتاج الي في العمل هذا اليوم؟».

اجابها وهو يتنحى عن الباب مسهلاً مرورها:

«نستطيع ان نأخذ اجازة في نهاية هذا الأسبوع. انها تفيدنا. في كل حال امامنا وقت كثير للعمل».

هل فعلاً الوقت كثير؟ تساءلت وهي تسير وحدها في القاعة الكبرى. كيف ستواجه الأشهر الخمسة في العيش تحت سقف واحد مع برانت، تعمل معه كل يوم، وتحبه كل يوم، وتحتفظ بشعورها لنفسها من دون ان تجرؤ بالبوح أو تتمكن من انتزاعه من جوارحها. منذ اليوم الأول علمت ان الرجل يمكن ان تحبه. شعورها العدائي نحوه لم يكن اكثر من محاولة لحماية ذاتها من جاذبيته. كم تمنت عبر محاولة كرهها له ان تتجنب خطره مع الاحتفاظ بالوظيفة التي تمنتها كثيراً. الآن تعترف انها فشلت. ثلاثة اسابيع قصيرة كانت كافية

لقلب حياتها رأساً على عقب. وتمنت لو لم تقرأ الاعلان في الجريدة، لو لم تلتق برانت، لو لم تعرف هذا الحب في داخلها. كان من الأفضل ان لا تحب من ان تحب من دون امل.

الأسبوع التالي كان اطول اسبوع عرفته في حياتها. كانت تستطيع ان تغرق في العمل وتمنع اي شيء من تشتيت ذهنها. ولكن وجدت ان حتى ملجأها في العمل بات غير كاف. وانها تعد الساعات وحتى الدقائق التي يعود فيها برانت من المقلع. مشتاقة وخائفة في اللحظة التي ستراه فيها.

الليالي التي كان يمضيها في الخارج كانت لها طويلة جداً. ومع ذلك عندما يكون في البيت، ترجو وتأمل ان لا يطلب منها ان تعمل معه. شعرت انها لا تستطيع ان تتحمل حميمية جو المكتب مع نار المدفأة والأضواء الجانبية.

على الغداء يوم الخميس سأل برانت من دون شديد اكتراث عن زيارة تلميذات المدرسة، ان كن ما زلن مصممات عليها. اخبرته فانيسا انهن سيصلن في الثانية والنصف بعد الظهر.

«ارجو ان يذهبن قبل عودتي».

قال برانت ساخراً واضاف:

«بالمناسبة، ايمي جاءتني متذمرة فقلت لها ان الفكرة كلها فكرتك. ارجو ان تكوني مستعدة لتحمل رد فعلها القاسي في تصرفاتها معك خلال الأيام المقبلة»!

فكرت فانيسا ان الأمر عندها سيان. فالمديرة لم تحبها منذ حضرت الى القصر.

في الوقت المحدد وصلت التلميذات في اوتوبيس المدرسة وخلفهن وصل جيرارد بسيارته الأوستن التي خرجت من المرآب.

«لم استطع ان اقاوم اغراء وجود مجموعة من الفتيات دفعة واحدة

في القصر! اراهن ان رالينغز لم تشهد يوماً مثله من قبل».

قال جيرارد مبرراً عودته وبقاءه لبعد الظهر.

ردّت محاولة ضبط ضحكة:

«اصمت، سيسمعونك يا ابله».

نزلت على السلالم الخارجية لتستقبل الفتيات بلباس المدرسة الأخضر وعيناها تبحثان عن المعلمة الآنسة بيرسون. طويلة نحيفة في الخمسين من عمرها. الفتيات بعضهن اكبر مما توقعت. نظرن اليها ثم تحولن بنظراتهن الى الشاب الأشقر الذي رحب بهن بحماس ظاهر. واختلط الحابل بالنابل وفكرت فانيسا انها لا تحسد الآنسة بيرسون على وظيفتها. والمعلمة بملامحها القاسية بدت لا تنتمي الى المجموعة. كانت تمرر يدها على جبينها وكأنها تمسح ألماً مبرحاً.

سألت فانيسا:

«هل انت بخير؟ لا تبدين مرتاحة».

«كلا، لست مرتاحة. اظن ان الوجع النصفي في رأسي عاودني. تناولت قرصاً ضد الصداع في الاوتوبيس ولكن لا يبدو كافياً. لا تهتمي، سأستطيع ان اتدبر امري».

نظرت فانيسا الى المعلمة التي يبدو الألم يتدفق من عينيها، وقررت:

«يجب ان ترتاحي لا ان تدوري في المتحف. تعالي الى المكتبة وتمددي على المقاعد. السيد جيرارد ترنر وانا سنتدبر امر تلميذاتك».

تجاهلت اعتراض المعلمة وتوجهت نحو جيرارد الذي كان نقطة ارتكاز حلقة من الفتيات. تجاوباً مع نظراتها افترق عن التلميذات وجاء يستمع اليها تقول:

«جيرارد، ان الآنسة بيرسون مريضة. سآخذها الى المكتبة لتستلقي هناك لبعض الوقت. هل تعتقد انك تستطيع ان تمسك

زمام الأمور حتى اعود؟ ابدأ معهن من هنا في القاعة واريهن سلالة العائلة».

وابتسمت وهي تضيف:

«لا اظن انك ستجد صعوبة في اشغالهن بضع دقائق».

«عظيم جداً. انا توقعت ان تحتجن الي اليوم».

قال ذلك ضاحكاً وتوجه نحو الفتيات وهو يقول:

«حسناً يا آنساتي. هناك تغيير طفيف في البرنامج. يبدو انكن ستبقين معي بضع دقائق. ان سرتن من هنا سأبدأ في تلخيص تاريخ عائلة مالوري عبر العصور».

تأمين راحة الآنسة بيرسون شغلها بعض الوقت. وعندما عادت الى القاعة، وجدت ان المجموعة كلها اختفت، ولكن ضحكة صاخبة من غرفة الاسلحة انبأتها ما رغبت في معرفته. جيرارد كان يقوم بالجولة على الطريقة التي تحلو له.

خلال ساعة من الوقت شعرت فانيسا انها توافق مع وجهة نظر برانت الذي كان ابلغها شكه في اهتمام عميق لتلميذات صغيرات. هن فقط اردن الزيارة لتغيير جو رتابة الصف. ومع وجود شاب حسن الشكل وظريف، فانهن اصبن عصفورين بحجر. جيرارد اضفى فكاهة على موضوع التاريخ الجاف.

من مكانها على رأس المجموعة لم تكن فانيسا تستطيع سماع ما يخبر جيرارد بضع فتيات حوله. ولكن ضحكهن المتعالي مع شعور عام بالتسلية، جعلاها تعتقد ان اجداد برانت يتقلبون في قبورهم. حاولت عبثاً مع جيرارد ان يحافظ على جدية الزيارة ورصانة الموضوع. وشعرت انها تهدر وقتها، فركزت اهتمامها على بضعة فتيات كن يبدين اهتماماً بما تقول متجاهلة الاخريات اللواتي بقين يستمعن الى تعليقات جيرارد ونكاته.

واخيراً انتهت الجولة، ونزل الجميع الى الطبقة السفلية لشرب الشاي في احدى القاعات. ولاحظت فانيسا في عيني ايمي انزعاجاً وهي تراقب اثاث البيت الثمين يتعرض للطخات الأيدي. وقررت فانيسا ان تذهب الى غرفة المكتبة لتطمئن الى حال الآنسة بيرسون.

المعلمة كانت جالسة على المقعد وتبدو في حالة مقبولة.

«اشعر اني ظلمتك بتحميلك مسؤولية الفتيات. هل ازعجتك في شيء؟».

ردت فانيسا:

«ابداً اظن انهم امضين وقتاً مفيداً، انهن يشربن الشاي الآن. هل ترغبين ان تنضمي اليهن او ترتاحي هنا واسعى ان يحضر الشاي اليك؟».

اقترحت ذلك وهي تعلم رد فعل ايمي ان تجرأت وطلبت. انقاذاً لها قالت المعلمة.

«كلا اشكرك. لقد ازعجتك ما فيه الكفاية. انت كنت لطيفة جداً يا آنسة يلدج. لن انسى ذلك ابداً».

ولا فانيسا ستنسى ذلك. وشعرت ان حملاً ثقيلاً ازيح عن كتفيها عندما انتهت زيارة التلميذات. واعترفت ان الزيارة كانت هدراً للوقت ولم يكن فيها اي فائدة علمية للتلميذات.

وعندما انطلق الاوتوبيس بالفتيات الملوحات بالأيدي، دخلت فانيسا الى البيت وهي تفهم المعنى الذي قصده برانت في الحرية الشخصية التي يفضلها بعد انتهاء موسم الزيارات.

القاعة الكبرى استقبلتها بالصمت والفراغ. وكل آثار للفتيات ازيلت بفضل فريق عمل ايمي النشيط.

«انا سعيد لأني عدت الى البيت».

قال جيرارد ضاحكاً وهو يتبعها.

«ان التغيير افادني جداً والا كنت الآن امضي بعد الظهر بملل شديد في المقلع».

«وماذا عن برانت؟ الم ينزعج لغيابك من المقلع؟».

«لن يعرف ذلك، الا اذا اخبرته انت. ذهب الى مدينة شيفيلد، ولن يكون هنا قبل السادسة».

«وماذا لو ذكر له الخدم وجودك؟».

«لماذا يفعلون؟ ولنفترض انهم فعلوا، ماذا في ذلك؟ انا شريك في العمل ويمكنني ان آخذ اجازة عندما ارى ذلك مناسباً».

اذا كان الأمر كذلك، فكرت فانيسا، لماذا لم يخبر برانت على الغداء انه لن يذهب الى المقلع لماذا ذهب ثم عاد بعد ساعة مثل تلميذ هارب من المدرسة؟ هل يخاف ابن خاله الى هذا الحد؟ واجابت لنفسها انه لا يخاف منه ولكن ينزعج من ملاحظاته التهكمية الساخرة. ولم تلمه.

لم ترَ برانت حتى قبل موعد العشاء بقليل. كانت تسير في ممرات المتحف في الطبقة الثانية وعندما صادفته على اعلى السلالم والتقت اعينهما، سألها:

«اخبريني كيف مر الوقت؟».

«جميل جداً، من دون اي مشكلة».

«انت تكذبين يا عزيزتي. انت قلت لنورا انك فرحت لرؤية الفتيات تغادرن المكان».

«حسناً انت كنت على حق. وانا كنت مخطئة. واذا قلت لي اني انا التي طلبت ذلك، فسوف... سوف...».

«سوف ماذا؟».

سألها باصرار ضاحك

«سوف استقيل».

قالت مازحة.

«انت مرتبطة بعقد يا عزيزتي. لا تنسي ذلك».

٩- طيش ودموع

نهار الجمعة شعرت فانيسا ان طباع ايمي لا تحتمل. كانت تصادفها في كل مكان وتتعمد ازعاجها، هي السكرتيرة التي جاءت الى القصر تتجرأ وتغيّر نمط حياة المديرة.

«أخيراً جاء أحد يتمكن منها».

قال بينيت لفانيسا في القاعة الكبرى عندما دخل وبيده حطب للمدفأة. ولم يكن كلامه يحتاج الى ايضاح:

«سوف تنسى».

قالت فانيسا بهدوء:

«في كل حال، حين تطاردني لتزعجني لن تجد وقتاً تراقبك فيه يا بانيت وأنا لو كنت مكانك، لاستفدت جداً من الفرصة».

فأجاب:

«فعلا، أنا مستفيد جداً».

غرفة المكتب كانت آمنة من الازعاج. امضت الصباح تنهي بعض الأوراق غير المكتملة، وبعد الظهر استلقت على المقعد الوثير قرب المدفأة تقرأ كتاب الشعر الخاص ببرانت، ومطمئنة الى ان برانت سيعطيها المجال لترتاح.

فقد قال لها:

«خذي وقتك، لا تتعبي والا ستتحولين الى...».

فقاطعته وهي تبتسم:

«الى خرقة بالية».

فقال:

«انه التعبير المفضّل لمويا».

وأضاف مبتسماً:

«أنت ومويا تبدوان على وفاق. اخبرتني انكما ذهبتما معاً على الحصان قبل أيام».

سألته في سرعة:

«هل تمانع؟».

بدا متعجباً.

«ولماذا امانع؟ جئت فقط لأقول انك تقسين على نفسك في العمل. واذا كانت مويا تؤثر عليك فتخففين من الاجهاد، سأسعى ان تحضر دائما بعد الظهر».

تناول سيكارة واشعلها وجلس الى مكتبه قائلا:

«فانيسا ماذا هناك؟ تبدين عصبية طيلة الاسبوع. هل ازعجك احد؟».

«كلا».

اجابت بفتور وعصبية ظاهرة اثارت استغرابه فشرحت:

«أظن انك على صواب في انني اجهد نفسي. أنا متعبة قليلا. هذا كل شيء».

«هل حقاً هذا كل شيء. ألا استحق ثقتك يا فانيسا؟».

«ليس من شيء اخفيه».

ثم غيّرت الموضوع وسألته:

«هل سنعمل معاً هذا المساء؟».

«لا حاجة لذلك. فعلت ما هو كاف لكلينا».

في المساء كانت فانيسا تستعد للسهرة الحافلة في القصر. كانت احضرت معها ثوبين للسهرة الى والينغز. احدهما اشترته في اليوم الذي سبق سفرها. اعجبها جداً على الواجهة. قررت ان ترتديه للحفلة. الفستان مصنوع من الصوف الاسود الناعم مقطّع في شكل ملائم جداً على جسدها النحيل. الياقة عالية ولكن مفتوحة على شكل سبعة من الأمام. لم ترتد مجوهرات، فقط سواراً ذهبياً أثرياً، ربما من عصر النهضة، هدية من جدها في عيد ميلادها الماضي.

أي شك في حسن اختيارها للفستان تبدّد مع صفير الاعجاب من جيرارد الذي حيّاها على أعلى السلالم بعدما توقف ليشعل سيكارة. قال:

«هل سبق أن أخبرك أحد انك رائعة الجمال؟».

«ان لم يفعلوا ذلك قبلك، فأنت تعوض عن كل النسيان».

اقترب منها وأحاط كتفيها بذراعه وقال بحميمية وصدق:

«شكراً فانيسا لأنك لم تجعلي احداً يعرف ما عرفته في تلك الليلة. انت طيبة جداً. وتحفظين الاسرار».

جعل رأسه يقترب منها وطبع قبلة على خدها. قبلت تصرفه واعتبرته عربون صداقة ولكنها انزعجت لفكرة انها طرف ثالث في

مؤامرة خداع لبرانت.

الضيوف لم يحضروا بعد، والدعوة كانت ابتداء من الثامنة. وكانت السيدة ترتر في غرفة الجلوس تبدو جذّابة في ثوب حريري اخضر اللون.

«فانيسا، تبدين جميلة جداً بهذا الفستان».

قالت نورا وهي ترى فانيسا وجيرارد يدخلان معاً. وأضافت:

«يبدو وكأنه فصّل خصيصاً لك».

سأل جيرارد مازحاً.

«وماذا عني أنا؟ كيف أبدو؟».

صوت برانت وصلهم قبله اذ قال:

«جاذبيتك لا تقاوم».

والتفتت فانيسا لترى الوجه الأسمر والجسم الممشوق في بزة سوداء وقميص بيضاء. بدا شديد الجاذبية. عندما التقت أعينهما شعرت ببرود الثلج في زرقة عينيه وأدركت فوراً سبب النظرة القاسية. لا بد انه شاهد جيرارد يقبّلها على السلالم، وهو يراقبهما من بعيد. ويعتقد انها هي التي افسحت في المجال لجيرارد لتقبيلها. سكرتيرته المغناج على السلالم مع ابن عمته في الوقت الذي يمكن ان يطل الضيوف ويروهما معاً. هكذا فكرت، فلا عجب ان بدا بارداً وقاسياً. وماذا يمكن ان يفسر ما رآه غير ذلك؟

رنين جرس الباب وقدوم الضيوف انقذها.

مويا بدت ملأى بالحيوية في ثوبها الأحمر. والدها شخص مميز في آخر الخمسين من عمره. القسيس وزوجته من عائلة ويلاسي زوجان رائعان في منتصف العمر. وزوجان من عائلة رامسون في سن برانت تقريباً. الزوج قصير القامة ممتلىء الجسم وصريح اللسان، والزوجة برندا جميلة ولكن مبالغة في الزينة وتبدو فارغة من الداخل.

اخيراً جاء شاب جلس الى جانب مويا واسمه لم يكن في الأساس على لائحة المدعوين. كان في سن جيرارد، يحمل خليطاً من الملاحة والبشاعة في وجه تعتبره بعض النساء جذاباً. شعره بني مجعّد ويبدو انه امضى وقتاً طويلا يدهنه بزيت تلميع الشعر. قدمه برانت باسم ديفيد بيترسون الواصل حديثاً من أميركا. تركه مع مويا يتحدثان وبدا انها تعرفه جيداً. من المكان حيث جلست فانيسا على طاولة الطعام رأت الشاب يتحدث باهتمام شديد مع مويا وينظر اليها باعجاب واهتمامه منصبّ على ما تقول. وبدا لفانيسا ان الشاب معجب جداً بمويا ولكن لا يملك الخبرة الاساسية في اخفاء هذا الاعجاب من تصرفاته المكشوفة. وبدا ان مويا تعبت منه وراحت تهتم بشخص آخر قربها، وعندما يئس ديفيد من المنافسة راح يحملق في الأواني امامه.

بعد العشاء هبّ الجميع الى غرفة الجلوس لتناول القهوة، موزعين على المقاعد والارائك. كلهم اصدقاء قدامى وعندهم الكثير يتحدثون عنه. برانت كان في زاوية يتحدث مع السيدة ويلاسي التي كانت تستفيد من الفرصة لتسأل معونة مالية لمشروع ما. سمعتها فانيسا تقول:

«ان المشروع مهم جداً. هو للأطفال طبعاً ولكننا جميعاً نتمتع به. سيكون رائعاً ان تقدم الهدايا أنت هذه السنة يا برانت. لا استطيع ان اطلب من نورا ان تفعل ذلك مرة ثانية».

لم تستطع فانيسا ان تسمع اجابة برانت. ولكن وجدت نفسها تبتسم للفكرة واذ بوالد مويا، برنارد هانسن يبادلها الابتسام ويقترب منها حاملا فنجان القهوة. جلس الى جانبها وقال:

«هل تعرفين، انك لا تبدين اطلاقاً مطابقة للفكرة في رأسي عن خبراء التحف؟».

ضحكت قائلة:

«أنا امامي الكثير لأكون خبيرة».

«برانت لا يظن ذلك. قبل أيام قال انه يستطيع ان يرمي نصف كتب المراجع طيلة وجودك في القصر، لأن الكتب تجمع الغبار ليس الا».

«ارجو ان لا يفعل! ان لذاكرتي حدوداً».

ثم غيّرت الموضوع سائلة:

«أظن عندك مؤسسة في شيفيلد؟».

«بالحقيقة، جزء من مؤسسة. أنا المدير الاداري في مصنع حديد وصلب».

«أنا لم أرَ أعمال حديد من قبل».

«يجب ان تري ذلك. سأطلب من برانت ان يحضرك وسأتجول معك في المصنع. وأعدك ان تكون زيارة مثيرة».

ابتسمت فانيسا للدعوة غير المتوقعة وشكرته متمنية ان لا يعتقد انها تعمدت ما قالته من اجل الحصول على الدعوة. رشفت القهوة من فنجانها وراحت نظراتها تجول في الغرفة لتتوقف عند مويا التي اخذت برانت من السيدة ويلاسي، وراحا يتحدثان قرب النافذة، وبدت مويا منطلقة في الحوار وبرانت يضحك من قلبه.

شعرت فانيسا بضيق وبلعت ريقها.

«شيء ما يبدو انه يسلي الاثنين».

قال السيد هانسن. وأضاف في خفة:

«هما يشتركان في حس الفكاهة. سمعت ان مويا تحركه للذهاب الى ركوب الخيل معاً».

قالت:

«لم اكن بحاجة الى ضغط كبير لأذهب. عندك ابنة ظريفة يا سيد

هانسن».

«نعم، هي كذلك. صحيح انها دلّوعة ولكني أنا المسؤول. فأنا لم أتمكن من حرمانها اي شيء. هي قرة عيني منذ وفاة زوجتي. ولكنها اصبحت من حصة برانت، فمنذ ان زارت هذا القصر كطفلة وهي تعتبره بمثابة بيتها».

«هل انتما ابناء المنطقة منذ زمن بعيد؟».

«ان عائلتي عاشت في هذه المنطقة، قبل ثمانين سنة. ان مويا ليست ابنتي. تبنيتها وهي في السن الرابعة. وللأسف ماتت زوجتي قبل بضع سنوات وكان لمويا مربيات طبعاً ولكن ليس من بديل لحنان الأم».

هنا كانت وصلت السيدة ويلاسي لتقطع حوارهما. وقالت:

«آنسة بيدج، أرغب في الحديث معك».

وجلست الى جانبها فقام السيد هانسن وقال مازحاً:

«أنا أرى عندها رغبة في تجنيدك لقضية. سأتركك لرحمتها يا فانيسا، وأوصيك ان تكوني قاسية».

ابتسمت السيدة ويلاسي وقالت له:

«لا تعتقد انك نجوت مني. أنا اريدك في جوقة الكنيسة».

تركها وتوجه نحو مجموعة نورا. وقالت ويلاسي:

«انها جمعية النساء. كنت افكر لو تستطيعين حضور احدى جلساتنا لالقاء محاضرة».

«محاضرة؟ عن ماذا؟».

«عن التحف طبعاً. ان سيدات في جمعيتنا يملكن بعض التحف ويرغبن في ان تلقي نظرة عليها وتعطيهن رأيك. سيسرهنّ نصيحتك».

لم ترغب فانيسا في الذهاب فقالت مدّعية حجة:

«ان وقتي ليس ملكي يا سيدة ويلاسي لأجيبك بنعم. يجب أن أسأل برانت اولاً».

«أنا سألته يا عزيزتي. وهو يقول ان الأمر يعود لك».

وجدت فانيسا نفسها مجبرة على القبول فقالت:

«حسناً، متى تريدين ان احضر؟ وأين؟».

«هل نقول الاسبوع المقبل؟ الثلاثاء؟ نورا ستحضرك معها».

وهذا الترتيب ايضاً تكون أعدته سلفاً. ان هذه المرأة ملتزمة بمشاريعها والآن فهمت ماذا قصد السيد هانسن عندما نصحها ان تكون قاسية. يبدو انها مشهورة في التغلب على كل الاعتراضات. ان زوجة القسيس تبدو مأخوذة بكامل نشاطات القرية. نظرت فانيسا حولها بحثاً عن مهرب من حديث المرأة. وجدت ديفيد وحده جالساً الى البيانو بعيداً عن المجموعة، يطرق على اصابع البيانو نوطات خافتة لا معنى لها.

قطعت فانيسا الحوار مع السيدة ويلاسي وقامت وهي تقول:

«أرى واحداً من دون قهوة».

وذهبت الى ديفيد وقدمت له فنجان قهوة جديداً مع ان فنجانه كان قريباً. وسألته:

«كيف وجدت الولايات المتحدة؟».

«آه، اعجبتني جداً، في البداية كل شيء بدا جميلا، الأبنية، الطرق، اسلوب الحياة. ولكن في بحثك عن معيشتك تعتادين على ذلك ويصبح كل مكان يشبه الآخر».

استندت الى البيانو وتابعت الحوار معه:

«اذن رحلتك كانت رحلة عمل».

«نعم، ذهبت مع فريق عمل لدراسة التقنية الاميركية في الادارة. أنا اشتغل لمؤسسة والد مويا. هو بالحقيقة سحب الفرصة من آخرين

واعطاني اياها، رغما عن غير حق، لأني قريب العائلة وأزور المدير الاداري دائما، أهلي وعائلة مويا أصدقاء و. . .».

نظر الى حيث مويا وتابع:

«ليست القرابة مفيدة لي في كل حال».

وفكرت انه لو لم يكن مهتماً بالفتاة الأخرى لكان امضى مع فانيسا وقتاً جيداً خلال السهرة.

سألته:

«ماذا كنت تحاول أن تعزف حين جئت اليك؟ بدت لي وكأنها اغنية من المسرحية الغنائية الجديدة، اظن اغنية، سأكون لك دائما، هل أنا على حق؟».

ضحك ديفيد.

«عندك اذن لاقطة. كنت أحاول ان اجمع اللحن. هل تعزفين انت على البيانو؟».

«قليلا جداً».

واذ بجيرارد خلفهما يقول:

«أنا أيضا اعزف. نصبح ثلاثة. ماذا لو نؤلف مجموعة؟».

وضع يده على كتف فانيسا وشدّها للجلوس الى جانبه على مقعد البيانو ثم جلس هو كذلك. صاروا ثلاثة على المقعد الواحد. فعلّق على ذلك جيرارد:

«في المرة المقبلة سنطلب مقعداً كبيراً. تعالوا نعزف معاً نحن الثلاثة. هل نبدأ؟».

ضرب على البيانو ضربات مبالغة. واذ بالأصوات خلفهم تتضاءل.

قالت فانيسا موزعة بين الغضب والابتسام:

«توقف، الجميع ينظرون الينا».

«عظيم! هذا ما احبه، أن اكون نقطة انتباه الجميع. ديفيد، الفتاة مترددة، هل نعزف أنا وأنت؟».

«كلا لا اعزف امام جمهور».

اجاب ديفيد ببرود وانسحب من الكرسي وهو يتابع:

«سأتركك تفعل ذلك وحدك».

حاولت فانيسا ان تلحقه ولكن شدها جيرارد من يدها قائلا:

«تعالي يا فانيسا، اتركيه وشأنه».

وعندما ابدت انزعاجاً قال:

«حسناً يا جبانة، سأنقذ المشهد».

وانطلق في العزف. فوجئت فانيسا ان عزفه مقبول. هو اختار الأغنية التي كان يحاول ديفيد ان يعزفها قبل ان يلتحق بهم. حيث كانت فانيسا ، تستطيع رؤية وجه نورا مع السيد هانسن على المقاعد الكبيرة. وجهها كان خالياً من التعابير. فانيسا لم ترى برانت، ولم ترغب كثيراً ان تعرف أين هو. تمنت لو ان جيرارد لم يختر هذه الليلة ليلعب دور الأبلة، على الأقل ان لا يحرجها معه. فكرت انه يبالغ احياناً في تصرفاته.

انتهى من العزف وصفق له الحضور اكثر مما يستحق.

ولما طلبت منه برندا رامسون ان يعزف اغنية ثانية قال:

«اعتذر لا استطيع ان انزل عند رغبة الجماهير».

ديفيد بقي طيلة السهرة مع فانيسا، ربما وجد في رفقتها تعويضاً عن الفتاة التي خذلته. وقبل ان يغادر المكان مع عائلة رامسون في الحادية عشرة والنصف اقترح لقاء في المدينة في مرة مقبلة. لم تجب فانيسا بتأكيد اللقاء بل تركته مفتوحاً لأنها مأخوذة جداً بالعمل، وسرت عندما قبل تبريرها. لم تتحمس لفكرة ان تكون مع رجل يتكلم طيلة السهرة عن فتاة اخرى مهما كان اعجابها هي بمويا.

عائلة ويلامي ايضا غادرت القصر بعد وقت قصير. ولكن السيد هانسن وابنته لم يكونا في عجلة. ملأ برانت فناجين القهوة من جديد وقدم للجميع، ومنهم فانيسا التي لم ينظر اليها وهو يفعل ذلك.

قال برنارد هانسن:

«جاء دورنا، أليس كذلك يا مويا؟».

اجابته مويا وكأنها آتية من بعيد:

«ماذا قلت يا ابي؟».

«جاء دورنا».

«دورنا لماذا؟ لنرحل؟».

«كلا بل لنحيي حفلة عشاء في البيت. ماذا لو انها بعد خمسة عشر يوماً من الآن؟».

قالت نورا:

«سأسجلها في المفكرة».

ونظر برنارد الى حيث جلست فانيسا صامتة قرب المدفأة وقال:

«وانت ايضا مدعوة يا عزيزتي. ربما تستطيعين ان تحثي جيرارد على العزف كما فعل الليلة. لم اعلم من قبل انك تعزف جيداً يا جيرارد».

وغادر السيد هانسن وابنته المكان بعد نصف ساعة من منتصف الليل ورافقهما برانت الى الخارج.

تثاءب جيرارد قائلا:

«أنا الى السرير الآن، شكراً لله ان غداً السبت، اعني ابتدأ منذ قليل».

«كلا لن تذهب قبل ان اقول ما أريد قوله لكليكما».

قالت نورا بغضب بارد، بدا نموذجاً من عائلة مالوري المتسلطة. وأضافت:

«يا جيرارد، متى ستتوقف عن التصرف مثل ولد طائش ومتى

ستبدأ بالنضوج؟ عزفك السخيف للفت الانتباه ليس ما يجب توقعه من شاب في الخامسة والعشرين».

ثم نظرت الى فانيسا وقالت:

«وأنت يا فانيسا، استغرب كيف شجعته على ذلك».

«اتركي فانيسا خارج الموضوع».

قال ابنها فاقداً فجأة اعصابه.

«واذا كنت تعتقدين انها شجعتني فأنت لا تعرفينها جيداً. واذا كنت تسعين الى مشادة عائلية، فأنا المقصود هنا ولا أرى من الملائم ان تشملي فانيسا معنا».

لمعت عينا نورا الزرقاوان وقالت:

«لا تتحدث معي هكذا. انا لا اقبل من احد ان يتحدث معي بهذه اللهجة خصوصاً ابني!».

وقفت فانيسا وهي ترتجف وقالت:

«سأذهب».

سارت حتى وصلت الى الباب لتقف مع دخول برانت. فهم ماذا جرى من رؤية وجهها الأبيض ووجهي الآخرين. بدا هو الآخر قاسياً. تنحى قليلا وفسح في المجال لمرور فانيسا.

وعندما اصبحت خارج الغرفة، ركضت نحو الطبقة الثانية ولم تتوقف الا في غرفتها وهي دامعة العينين.

١٠ - الوقت يشفي الجراح

صباح اليوم التالي غادر جيرارد القصر باكراً من دون ان يتناول طعام الفطور. بانيت، الذي رآه يخرج لم يعرف موعد عودته. غيابه خيم صمتاً على الفطور الذي شارك فيه برانت ونورا وفانيسا.

بعد الفطور قالت نورا لفانيسا على انفراد:

«انا اعتذر لما قلته لك في الليلة الماضية. كان يجب ان اعلم انك لست من النوع الذي يدخل طرفاً في عمل صبياني. ارجو ان تنسي ما حدث».

فانيسا تجاوبت طبعاً. لم يكن في طبعها حمل اي ضغينة. ابتسمت للمرأة وبلباقة غيرت الموضوع. وقالت:

«السيدة ويلاسي حجزتني لاجتماع الجمعية النسائية الثلاثاء -

المقبل. ارجو ان لا اظهر في مظهر الجاهلة».

«انت شاطرة جداً يا فانيسا وانا واثقة من قدرتك على التصرف».

وافترقت المرأتان، ذهبت نورا الى غرفة المكتبة، وفانيسا الى غرفة المكتب. نقرت على الباب بتردد. تعلم ان برانت في الداخل. كان صامتاً خلال الفطور وتساءلت ان كان ما يزال غاضباً منها. مجرد الفكرة ان يكون رآها وجيرارد يقبلها جعلها تشعر بالذنب على رغم براءتها.

«ادخلي».

قال لها، فشعرت بانقباض في قلبها. كان جالساً الى المكتب يقرأ بعض الرسائل التي وضعتها له على مكتبه في اليوم الفائت.

سألته:

«هل تريد ان نعمل معاً هذا الصباح؟».

فكر قليلاً من دون كثير اهتمام وقال:

«نستطيع ان نصنّف المتحف الطويل في الطبقة الثانية. اقترح ان اغير الترتيب قليلاً».

اذن لن يذكر ما حصل بالأمس. فكرت بارتياح واقفلت الباب وجلست الى مكتبها.

قالت:

«سأحضر بعض الورق ولائحة اللوحات».

تعجب برانت وقال:

«لم اكن اعلم ان ثمة لائحة باللوحات».

«اعددت واحدة الاسبوع الماضي. اذ انك قلت مرة انك تفكر باجراء بعض التعديلات».

«الا يغيب عن بالك شيء؟».

ثم اضاف بنبرة جديدة:

«هل تفهرسين الناس حسب اصنافهم ومن ثم تنظرين اليهم على اساس هذه الفهرسة؟».

اجابت ببطء:

«لا اظن اني افهم».

«كيف لا تفهمين؟».

واضاف ساخراً:

«خذي مثلاً ليلة امس، في لحظة كنت تلعبين دور المهرج مع جيرارد، وفي لحظة ثانية كنت تنظرين الى ديفيد وكأنه الرجل الفريد في العالم وتجعلينه يصدق ذلك. اخبريني، هل يرضي غرورك ان يكون الرجال تحت اقدامك؟».

لم تصدق ما تسمع، قالت بنبرة منخفضة:

«انت تقول كلاماً غير واقعي. ديفيد كان يخبرني عن رحلته الى اميركا».

«كل ذلك الوقت؟».

«لم اجد احداً يتحدث اليه».

شعرت بابتسامته الساخرة فقالت منزعجة:

«ماذا كنت تريدني ان افعل، ان اتركه جالساً وحده؟».

«كان ذلك افضل من ان اسمع ملاحظة من امرأة مثل برندا رامسدن تعلق بأن عندي سكرتيرة تطمح للمستقبل».

«آه، فهمت الآن. اذن لا يفيد ان نكرت بأني ما كنت ابحث عن عريس غني».

«اذا كنت كذلك، فأظنك تضيعين وقتك مع ديفيد. فهو يحتاج الى بعض الوقت قبل ان يتمكن من اعتبار نفسه قادراً على الاستقرار. الاشخاص الذين مثل ديفيد يبدأون حياتهم من اسفل السلم ويحتاجون الى وقت طويل قبل ان يصلوا الى ما يصبون اليه.

في كل حال انا لا اظن انك كنت مهتمة بديفيد بل كنت تستعملينه لتثيري جيرارد، ام انك تنكرين ذلك ايضاً؟».

وضعت فانيسا الأوراق جانباً. وفوجئت ان يديها لا ترتجفان. شعرت انها غريبة عن الكلام الذي يقوله برانت وكأن الموضوع يتناول امرأة غيرها. واذ به يقول لها:

«نعم، ماذا تقولين في ذلك؟».

اجابت ببرود:

«هل ينفع نكراني؟ يبدو انك جعلت كل الاشياء مفهرسة سلفاً وجاهزة للقطع».

«اذن استطيع القول ان جيرارد اضاف جمجمة جديدة وعلقها على خاصرته. هذا هو كل ما تعني له العلاقة مع امرأة. انه ليس مغرماً بك مستقبلاً».

وفكرت فانيسا كم هو بعيد عن الحقيقة وكم هو مخدوع بالظواهر. ووجدت نفسها تقول:

«حسناً، انا اعرف ذلك. الست انت الذي قلت مرة ان الحب يمكن ان يسبب الماً بقدر ما يسبب سعادة؟».

وغادرت الغرفة بصمت وهدوء.

مر قبل الظهر، وجاء الغداء مزعجاً لفانيسا. برانت كان صامتاً طيلة الوقت. ونورا اختارت ان تتجاهل الاجواء المتوترة، وفضّلت أن تتحدث في مواضيع جانبية.

بعد الظهر تنزهت فانيسا في الحديقة مع الكلب توبر وعادت في موعد الشاي. وجدت نورا وحدها في غرفة المكتبة، بادرتها:

«برانت ذهب الى المدينة، يبدو أننا سنمضي الأمسية وحدنا».

صباح الأحد، تناول برانت فطوره باكراً وانزوى في غرفة المكتب. لم تسأل فانيسا ان كان يريدها للعمل. فكرت انه اذا كان

يريدها يستطيع ان يأتي اليها ويخبرها. امضت الصباح مع نورا في المكتبة تساعدها في لف خيطان الصوف.

بعد الغداء ارتدت ثياب ركوب الخيل وتوجهت نحو الاسطبل. جورج حياها قائلاً:

«اعتقدت انك هجرتنا. نهاية اسبوعين مرا ولم تأتي في جولتك الصباحية».

اعد لها الحصان وقال:

«لا اظن انك كنت تتجنبين المعلم في جولته على الحصان، اليس كذلك؟».

اجابت:

«فكرت انه يفضل ان يتجول وحده».

«الأراضي هنا واسعة جداً، وانت تعرفين ذلك».

وصعدت فانيسا بلباقة على دايس، وقبل ان تستعد للانطلاق، دخل برانت بثياب الفروسية.

قال:

«لا بأس يا جورج، انا سأعد حصاني. لست مستعجلاً».

تجولت فانيسا وحدها في الحقول، تاركة دايس تختار طريقها وترعى الاعشاب بهدوء. فكرت ان الحياة في رالينغز اصبحت كابوساً. هي لا تستطيع ان تمضي خمسة اشهر اخرى تحاول خلالها عبثاً ان تخفي حباً قوياً نحو برانت. وكذلك لا تستطيع احتمال فكرة ان برانت يظن خطأً انها مغرمة بجيرارد. يجب ان ترحل، وفي اقرب وقت ممكن. صحيح ان هناك عقداً بالعمل، ولكنها باتت تعرف برانت جيداً فهو لن يجبرها على تنفيذ القانون ان حسمت له رغبتها في الرحيل. وقررت ان تخبره قرارها خلال الاسبوع الجاري.

عاد سيد رالينغز الى البيت في السادسة والنصف وصعد فوراً الى

الطبقة الثانية.

وبعد نصف ساعة تقريباً رأته فانيسا، من شق باب المكتبة حيث كانت تقرأ كتاباً، ينزل السلالم في ثياب السهرة. راقبته يقف قليلاً ويشعل سيكارة ويظهر وجهه الاسمر منيراً. يعيد الولاعة الى جيبه وينظر مباشرة نحو فانيسا. امتلكها شعور ان الرجل كان يعرف بوجودها هناك وبمراقبتها له. تحرك برانت من الخارج نحو باب المكتبة وسألها:

«هل رأيت عمتي؟».

«لم ارها بعد موعد الشاي، اليست في غرفتها؟».

«لو كانت في غرفتها ما كنت سألت. لا بأس، ارجو ان تخبريها اني ذهبت عند عائلة ماكستد».

واضاف بسرعة:

«ليلة سعيدة».

وخرج.

نحو الثامنة، عندما دق ناقوس موعد العشاء، لم تظهر نورا في غرفة المكتبة ولا في غرفة الجلوس ولا في غرفة الطعام. جلست فانيسا وحدها الى طاولة الطعام وهي تستغرب تخلف نورا. انها دقيقة جداً في مواعيدها ولا تتخلف من دون اعلام مسبق.

سألها باكستر ان كانت ترغب في تناول العشاء، اجابت:

«انتظر السيدة ترنر».

وبعد عشر دقائق نظرت الى باكستر، فوجدته يشاركها قلقها.

قال:

«هل تظنين انه من المناسب ان يذهب احد منا الى غرفتها ويرى ان كان شيئاً سيئاً حصل؟ ليس من عادات السيدة ترنر التأخر».

قامت فانيسا قائلة:

«سأذهب بنفسي اليها، ربما تكون مريضة».

ولكن نورا لم تكن في غرفتها. عادت فانيسا ادراجها وهي قلقة على ما يمكن ان يكون حصل. ان نورا يمكن ان تخرج في زيارة طبعاً وتتناول العشاء مع اصدقاء، ولكنها تخبر عن تحركاتها، على الاقل تتصل هاتفياً. انها من النوع الذي يتشدد جداً في هذه المسائل وتطلب من كل افراد الاسرة الالتزام بهذه العادة. ولكنها اليوم لم تقل شيئاً. خلال موعد الشاي لم تتحدث عن رغبتها في الذهاب الى اي مكان. تذكرت فانيسا ان نورا قالت شيئاً عن كونها متعبة وتحتاج الى راحة. ولكن السرير في غرفتها لم يكن مستعملاً منذ الصباح.

تناولت فانيسا العشاء وحدها. قال باكستر بقلق.

«لا استطيع ان افهم. ليس من عاداتها الخروج من دون ان تخبر احداً. اذكر انها مرة علقت بالثلج في سيارتها ولم تستطع ان تعود. مشت ثلاثة اميال لتجد كشك هاتف وتتصل بنا وتخبرنا عن سبب تأخرها. لا بد ان شيئاً سيئاً حصل. انا متأكد من ذلك».

هبت فانيسا من مقعدها قائلة:

«سوف اتصل بالسيد مالوري».

وجدت رقم عائلة ماكستد في الدليل. اتصلت به. وجاء الجواب:

«السيد مالوري ما يزال يتناول طعام العشاء. هل استطيع ان انقل اليه رسالة شفهية؟».

ترددت فانيسا قليلاً، ثم قالت:

«بل اريد التحدث معه شخصياً».

«من نقول له؟».

«فانيسا، سكرتيرته».

مر بعض الوقت قبل ان تسمع صوت برانت على الهاتف:

«فانيسا، ماذا هنالك؟».

شعرت باهتمامه. ربما يكون فكر ان امراً معقداً حصل. ماذا تقول له؟ ان عمته، الامرأة الناضجة الذكية، لم تعد الى البيت بعد، والساعة لا تتجاوز التاسعة؟

لاحظ صمتها فقال:

«فانيسا، هل انت بخير؟».

«نعم».

وعرضت له الوضع كما هو. وبعد صمت قليل قال:

«هل ذهبت الى المرآب لتتفقدي سيارتها؟».

شعرت فانيسا انها بلهاء لانها لم تفعل ذلك. اعترفت:

«كلا، لم افكر بالأمر. طبعاً ذلك العمل منطقي وكان يجب ان اقوم به اولاً».

وسألها:

«ماذا عن الخدم؟ هل كلهم لا يعرفون اين هي؟».

مرة ثانية شعرت فانيسا انها تسرعت بالاتصال به من قبل ان تسأل كل الخدم والعاملين في القصر. ولكنها قالت:

«لم استجوبهم بعد. باكستر قال ان احداً لم يبلغه ان السيدة نورا لن تكون على العشاء. وانا توقعت ان تخبره اي لو كانت تعلم بالأمر».

توقفت قليلاً ثم اضافت:

«برانت، انا اعتذر ان كنت جعلتك تقلق من دون مبرر. كان يجب ان اقوم اولاً بكل الاشياء التي قلت عنها؟».

وفوجئت به يقول:

«انا مسرور لانك اتصلت بي يا فانيسا. ان تصرف نورا ليس طبيعياً. سأكون في البيت خلال خمس عشرة دقيقة».

التقته فانيسا على الباب لتخبره ان سيارة نورا ليست في المرآب وان احداً من الخدم لم يرها بعد تناول الشاي. وان فانيسا كانت صعدت الى الطبقة الثانية بعد موعد الشاي ولم تر نورا منذ ذلك الوقت.

لم يضيع برانت وقته في مراجعة ما قامت به فانيسا. بل اخذها من يدها الى غرفة المكتبة واصر ان تجلس، قائلاً بهدوء:

«الآن، اخبريني. قلت انك آخر من رآها في موعد الشاي. فكري جيداً، هل قالت اي شيء يمكن ان يثيرنا؟».

«فكرت بالموضوع كثيراً. كلا يا برانت، لا اتذكر اي شيء يفيد عن وجودها. قالت انها متعبة وانها تحتاج الى راحة. ولكن هذا كل شيء. انا تقريباً متأكدة من ذلك».

«ماذا تقصدين بكلمة تقريباً؟».

«في الحقيقة انا لم اكن انصت اليها. كنت مشتتة الفكر. تعرف كيف احياناً يتحدث شخص وانت تستمع اليه واحياناً تتجاوب معه، ولكن في وقت لاحق لا تستطيع ان تضع صورة حقيقية للمناقشة التي دارت».

قالت ذلك من دون ان ترفع رأسها نحوه. اجاب:

«نعم، اعرف ماذا يعني ذلك».

واضاف:

«عندما قالت انها تحتاج الى ان ترتاح هل اضافت شيئاً؟».

«هل يمكن ان يكون مكاناً للراحة غير غرفتها؟».

بدا برانت يفكر ثم يقول:

«يمكن ان تكون ذهبت الى . . . كلا، لا اظن انها ستذهب الى هناك. انها لم تذهب الى البيت الزجاجي منذ وقت طويل».

البيت الزجاجي؟ انه بيت صغير من زجاج يطل على مناظر طبيعية خلابة. تذكرت فانيسا ان نورا تمتمت شيئاً عن الجانب الآخر من

البحيرة. قالت:

«انها كانت تقول ان منظراً جميلاً للقصر في الجهة الاخرى من البحيرة في مثل هذا الوقت من السنة؟».

ووجدت فانيسا نفسها تقفز وتقول باصرار:

«انها هناك، بالطبع انها هناك».

لم يعارضها برانت. بل قال:

«ان المشي الى هناك بعيد سنذهب في السيارة ونستعمل الممر الفرعي الذي ينتهي في الغابة حيث البيت الزجاجي».

فرحت فانيسا لانه لم يستثن ذهابها معه. وخلال لحظات كانا في السيارة، في الممر الفرعي المليء بالحجارة الصغيرة. بدا أن برانت لا يكترث بالاضرار التي يمكن ان تحدث للسيارة.

بعد نحو ست دقائق اوقف برانت السيارة بين اشجار كثيفة.

ونزل من السيارة قائلاً:

«ابقي هنا. ان الليلة باردة جداً. وانت لم تحضري معطفاً».

ومع ان لهجته كانت آمرة إلا انها تجاهلت لأول مرة اوامره ونزلت من السيارة قائلة:

«سآتي معك. الثوب الذي ارتديه يرد البرد كفاية».

واشعل برانت بطارية ضوء وسارا معاً في الغابة. سمعا صوت استغاثة:

«انها نورا».

قال برانت بتأكيد وارتياح:

«اسرعي، المكان ليس بعيداً».

البيت الزجاجي من جهة التلة الكثيفة بالاشجار، يطل على القصر من خلف البحيرة. وظهرت نورا على احدى سلالم البيت ترتجف من البرد والألم.

«شكراً لله! ظننت اني سأمضي الليلة هنا. وقعت عن السلالم. اظن اني كسرت عظمة الرسغ».

خلع برانت سترته واحاط بها عمته. وتفحص رجلها.

تمتمت نورا:

«اذن تذكرت ما قلت يا فانيسا. كان ذلك الأمل الوحيد الذي انتظرته، ان يخطر ببالك اني قد اكون في البيت الزجاجي».

ابتسمت فانيسا وقالت بارتياح:

«ما كنت سأعرف ذلك لو لم يذكر الموضوع برانت اولاً».

وضع برانت ربطة عنقه حول الرسغ وقال: «الآن ارجو ان يساعدك ذلك حتى الوصول الى البيت. انا لا اعتقد ان الرسغ مكسور. ربما التواء بسيط».

فقالت نورا متألمة:

«بسيط؟ لو كنت مكاني لما تجرأت على استعمال هذه الكلمة».

في البيت التقتهم ايمي على الباب بوجه قلق:

«شكراً لله، وجدتماها».

وفيما برانت يحمل عمته على السلالم راحت ايمي تقول:

«آه يا سيدة ترنر، قلقنا جداً عليك. انت مصابة بأذى ايضاً؟».

ردت نورا:

«توقفي عن ذلك يا ايمي، وأعدي لنا الشاي».

وأضافت ناظرة صوب فانيسا التي توقفت في القاعة.

«تعالي معنا الى الغرفة يا فانيسا».

واخيراً في غرفتها الدافئة استراحت نورا في السرير، واتصل برانت بالطبيب ثم قال:

«سيكون هنا بعد قليل».

ونظر الى فانيسا مبتسماً بدفء جعل قلبها يخفق في شدة. ثم قال

لعمته.

«هل تشعرين بتحسن الآن؟».

«سأشعر بتحسن عندما يصبح الشاي في داخلي، انا في الحقيقة جائعة جداً».

فقال برانت:

«ايمي تحضر كل شيء، بلا شك».

واضاف:

«فانيسا فهمت منك انك متعبة. ما الذي جعلك تسيرين كل هذه المسافة؟».

«هل قلت اني متعبة؟ ربما كنت اترجم افكاري عالياً».

واعادت ظهرها الى الوراء مستندة الى الارائك وقالت:

«لم يكن تعباً جسدياً. فقط شعرت انه كفاني ما عانيت من مرارة الماضي. هل تفهم يا برانت؟».

«نعم افهم».

قال ببساطة وبحنان.

وبعد طرق على الباب دخلت ايمي بطبق مليء بالطعام والشاي.

وبعد قليل وصل الطبيب ووجد في الرسغ التواء قاسياً. ونصحها ان لا تتحرك من سريرها لبضعة ايام.

دعا برانت الطبيب لتناول الشاي في غرفة الجلوس. وغادرت فانيسا غرفة نورا تاركة ايمي تساعد معلمتها في تغيير ثيابها.

بعد قليل نزلت فانيسا الى تحت، والتقت ببرانت يودع الطبيب على الباب، ثم يستدير نحوها ويقول:

«اهلاً بك، ظننت انك ستذهبين فوراً الى سريرك، كانت ليلة متعبة اليس كذلك؟».

قالت:

«نزلت آخذ حقيبة يدي، نسيتها في غرفة المكتبة».
قال:
«خذيها فيما بعد، تعالي الآن، اني احب ان اتحدث معك في غرفة المكتب».
توبر كان في وضعه المفضل امام المدفأة. جلست فانيسا على المقعد الكبير وانحنت تداعب اذني الكلب.
«هل تعلم اننا نسينا شيئاً مهماً خلال بحثنا عن حل لمشكلة اجداد عمتك؟ كان يمكن لتوبر ان يقتفي اثرها».
«اشك في ذلك. ان توبر كلب حراسة عادي. عندما يصبح الأمر اقتفاء اثار، اعتقد انت وانا نقوم بعمل افضل».
ناولها فنجان شاي من ابريق قريب وتناول واحداً هو كذلك.
ثم قال:
«اظن انك تتساءلين كيف انتني فكرة البيت الزجاجي مع ان نورا لم تذهب الى هناك منذ زمن بعيد».
فانيسا كانت تساءلت في ذاتها عن سر البيت الزجاجي وكلام نورا عن مرارة الماضي ولم تفهم. قالت:
«ربما تكون شعرت برغبة شديدة في رؤية المناظر الطبيعية».
«كلا. الأمر اكثر من ذلك. في البيت الزجاجي التقت اول مرة بغراهام ترنر. وهناك كانت تلتقيه في استمرار بعدما امرها والدها ان تمتنع عن رؤيته. احبت المكان منذ كانت طفلة. وهي عندما عادت الى القصر وسكنت هنا منذ ست سنوات، لم تذهب الى البيت الزجاجي مخافة ان تستعيد آلامها».
كان يقول هذا الكلام وهو يتوقع سلفاً ان فانيسا تعرف كل قصة نورا وزواجها الفاشل. مشى قليلاً في الغرفة صامتاً ثم توقف امام المدفأة محدقاً في صورة والدته ثم قال:

«المرارة تدمر الذات ولا يمكن ان يتعايش معها الانسان. انا سعيد لانها اخيراً تغلبت على هذا الشعور».
لماذا يخبرها ذلك؟ تساءلت فانيسا من دون ان تقدر على نزع عينيها من الوجه الذي ستذكر خطوطه ما حييت.
«الوقت يشفي كل الجراح».
قالت وهي تفكر بجرحها واضافت:
«ولكن البعض يحتاج الى وقت اطول من غيرهم. هذا كل شيء».
اداز وجهه نحوها. شعرت في عينيه تلك الميزة على اختراق الافكار من دون ان يقدر احد على اختراق افكاره. بدأ يتكلم:
«فانيسا، اود ان...».
ولكن توقف عند ضجيج باب يقفل في الخارج، ووقع اقدام وصفير.
قالت فانيسا:
«انه جيرارد».
هز رأسه. هو ايضاً ادرك انه جيرارد. انهى فنجان الشاي بين يديه ثم قال:
«شكراً لك يا فانيسا على كل شيء فعلته الليلة. لو ترددت وتأخرت في الاتصال بي لكانت نورا تعاني اكثر من الألم».
نظر الى ساعته وتابع:
«لن ابقيك اكثر. ان الساعة تجاوزت الحادية عشرة».
على الباب توقفت فانيسا والتفتت الى الرجل الواقف امام المدفأة وتوبر على قدميه، قالت: «ليلة سعيدة».
لاحظت الارتياح على وجهه عندما اجاب:
«ليلة سعيدة لك ايضاً».

وهي تسير الى غرفتها لم تلاحظ جيرارد في اي مكان. فكرت انه ربما توجه مباشرة الى سريره. لم تتوقع ان يرجع الى البيت بعد الكلمات النابية التي توقعت ان يكون تبادلها مع برانت.

بلغت فانيسا غرفتها وفتحت الباب واذ بجيرارد في الداخل يستقبلها واقفاً.

«ماذا تفعل هنا؟».

قالت بانفعال.

ابتسم جيرارد:

«هل بدأ راي اهلي عني يؤثر فيك؟ فكرت انك الشخص الوحيد الذي استطيع ان اعتمد عليه، ولا يخشى من سمعتي».

قالت:

«انها سمعتي التي كنت افكر فيها».

واضافت:

«كل ما آمله ان لا يكون رآك احد تدخل غرفتي في مثل هذا الوقت من الليل».

«اعتذر ان ازعجتك يا عزيزتي. لم افكر في ذلك. اردت فقط ان اتكلم معك في موضوع».

«الم تستطع الانتظار حتى الصباح؟».

«ليس من وقت في الصباح للتحدث معك على انفراد. فانت دائماً مأخوذة».

رأت في وجهه جدية وكآبة. صمتت. فقال:

«هل تريدين مني ان اذهب؟».

كانت تفضل لو لم يأت. ولكن لم تستطع ان تقول له ذلك. ابتسمت بتردد وقالت:

«الآن بما انك هنا تستطيع ان تقول ما في داخلك».

اشعل سيكارة ونظر اليها قائلاً:

«هل توقعت، يا فانيسا، الا اعود الى رالينغز؟».

«كلا. اعرف انك ستعود. انت قلت لي اول مرة التقينا فيها يا جيرارد انك تعيش هنا لانك لا تستطيع ان تعيش في المستوى ذاته في مكان آخر. لم افكر انك ستتخلى عن ذلك بسهولة».

«انت تقولين الاشياء ببساطة يا عزيزتي».

«اقولها لاني احب ان اقول لك الحقيقة ولاني لا اظن انك سطحي مثلما تحب ان تظهر للاخرين. وقبل ان نتابع حديثنا احب ان اخبرك ان والدتك تعرضت لحادثة».

الاعلان الفاجىء انعكس انتفاضة من جيرارد سأل:

«ماذا حدث؟».

«لا بأس، ليس الأمر خطيراً».

اخبرته القصة بكاملها. شعرت باهتمامه وقلقه. انه مهتم بأمر والدته.

«هل تعتقدين ان الوقت متأخر لأذهب اليها واراها؟».

«اتوقع ان تكون نائمة. كانت متعبة جداً. لماذا لا تزورها في الصباح قبل الفطور؟ ستفرح لرؤيتك».

«نعم سأفعل».

ولم يحاول ان يغادر الغرفة بل اراد ان يتحدث في الموضوع الذي جاء من اجله وبدأ:

«فانيسا ، اريد ان آخذ رأيك في . . .».

ولم يتمكن من المتابعة ، اذ امام الباب المفتوح ظهر [illegible] حقيبة يد فانيسا!

١١- اهلاً بك في بيتك!

براتت كان الاول في قطع الصمت:

«هل انتما معتادان على هذه اللقاءات؟».

قال ذلك بنبرة قاسية ولم يدع المجال لأحد في الاجابة اذ تابع:

«جيرارد، انا الآن كنت عند والدتك. هي صاحية وترغب في رؤيتك».

تردّد الشاب الاصغر ثم قال:

«براتت...».

ولكن فاتيسا قاطعته:

«لا تقل شيئاً جيرارد. اذهب لرؤية امك».

نظر اليها نظرة شخص يعتذر للموقف الذي وضعها فيه، ولكن اطاعها وخرج من الغرفة ماراً قرب ابن خاله من دون ان يقول شيئاً.

بقي براتت واقفاً في مكانه بازدراء وقال:

«سألت اذا كنتما معتادين على هذه اللقاءات؟».

فأجابته وهي تسعى ان تضع كامل الموقف في اطاره الصحيح:

«الا ترى ان كلمة لقاءات تقليدية جداً؟».

«ربما، ولكن استعملها لانني رجل احمل قيم التقاليد بمعناها الاخلاقي، وظننت لفترة انك ايضاً تشاركيني هذه القيم. انا كنت دائماً احسب نفسي قادراً على تبين صفات الناس ولكن معك كنت بعيداً جداً عن الحقيقة».

حدقت فيه وشعرت انها تكره جبروته وقدرته على جرح الآخرين وتكره جعل حبها له يبدو من دون امل. قالت:

«ألا تحمل الاشياء اكثر مما تحمل؟ لم تحصل هذه اللقاءات من قبل، ولن تحصل في المستقبل».

«من الافضل ان لا تحصل».

قال ذلك ببرود تام تاركاً حقيبة يدها على الطاولة قرب الباب، وذهب.

نورا رفضت في اليوم التالي ان تبقى في سريرها. وهددت ان تسير وحدها ان لم يساعدها احد. حملها براتت الى المكتبة بعد الفطور ووضعها على مقعد مريح قرب المدفأة قبل ان يغادر المكان مع جيرارد الى المقلع.

فاتيسا شربت مع نورا القهوة التي حملتها ايمي المرحة لاول مرة. اذ يبدو انها نسيت شعورها العدائي نحو السكرتيرة

الجديدة فراحت تبتسم وتجعل الاجواء رطبة.

«تبدين متعبة».

قالت نورا لفانيسا عندما اصبحتا وحدهما في الغرفة. واضافت:

«علمت ان عراكاً كلامياً جرى بينك وبين برانت الليلة الماضية».

«بالكاد يمكن تسمية ما حصل عراكاً. لا يمكن ان اتعارك مع ابن شقيقك. ان الشخص معه يسمع ويقبل ما يقول من دون مناقشة».

وحاولت ان تبتسم وهي تضيف:

«لم يكن الامر مهماً. ولا اظن ان مضاعفات ستنتج عن ذلك».

«جيرارد اخبرني ماذا حصل. لا تحكمي على برانت بقسوة. عنده لسان جارح عندما يغضب، اعرف ذلك، ولكنه لا يعني ما يقوله».

«ومن منّا لا يغضب؟».

قالت مويا وهي تدخل الغرفة وتلتقط العبارة من آخرها. جلست على احد المقاعد وسألت.

«كيف حال الجريحة؟ برانت اتصل بنا وأخبرنا ماذا حصل. كنت اريد ان احضر معه الليلة الماضية لكنه لم يقبل».

ثم نظرت الى الطاولة حيث القهوة وسألت:

«هل في الابريق قهوة؟ انا اتحرق لفنجان».

ردت نورا على سؤالها الاول:

«ان الجريحة تتحسن، شكراً. واعتقد ان برانت فعل المناسب بعدم قبوله ان ترعجي نفسك بالامس. واظن، ان

امي توقعت حضورك فضاعفت كمية القهوة».

ضحكت مويا وقامت تصبّ لنفسها فنجان قهوة. بدت جميلة جداً بثوبها الازرق وشعرها الاشقر. وقالت:

«انا دعوت نفسي الى العشاء ايضاً. رأيت امي في طريقي الى الغرفة وابلغتها ذلك. ووالدي سيأتي ليراك بعد الظهر».

فردت نورا:

«هل سيحضر حقاً؟ اذن سيكون عندنا الكثير لنتحدث عنه».

وبعدما انهت فانيسا فنجانها قالت:

«يجب ان اذهب للعمل. اظن ان الرزمة الثانية من البريد وصلت وانا لم انته من الاولى بعد».

في مكتبها راحت تراجع البريد، وجدت رسالة خاصة لبرانت، وضعتها على مكتبه بحيث يتمكن من ملاحظتها عند وصوله. وتابعت عملها مغلقة ذهنها عن اي شيء غير العمل.

جو الغداء كان مرحاً. برانت لم يكن موجوداً، ونورا اختارت ان تتناول طعامها في المكتبة. وجيرارد لم يكن منزعجاً اطلاقاً من ان يكون محاطاً بأجمل فتاتين على الارض يسليهما.

لم تستطع فانيسا، مستمعة الى الاثنين يتكلمان ويضحكان، الا ان تفكر انهما يلائمان بعضهما جداً. كلاهما على الموجة ذاتها، يملكان الحماس ذاته للعيش. ومن جهة ثانية لم تستطع ان تتخيل مويا متزوجة من برانت، تقاسمه ذوقه في الموسيقى والقراءة والمسرح، او هو يعطي اذنيه وعينيه للموسيقى الصاخبة وللرسوم التجريدية.

جيرارد غادر البيت الى المقلع نحو الثانية. رافقته مويا حتى الباب ثم دخلت غرفة المكتب تراقب فانيسا تعمل وتحادثها في

خفة. وفجأة قالت:

«انت تعرفين عن علاقتنا انا وجيرارد، اليس كذلك؟».

ثم اضافت من دون ان تتعمد ازعاج فانيسا:

«وتظنين اننا نخادعان اليس كذلك؟».

«في الحقيقة الموضوع كله لا يعنيني. ولكن بما انك تسألين ساخبرك: نعم انا أظن أنكما تخادعان. الا ترين انه من المناسب ان تخبري برانت عن ذلك قبل ان يعرف بنفسه من مصادر اخرى؟».

أبدت مويا امتعاضاً وقالت:

«واذا علم فليعلم، هذا كل شيء. ربما يتضايق في البداية ولكن سيتغلب على ضيقه فيما بعد».

«هل تغامرين في جرحه من اجل نزوة عابرة؟».

واذا بوجه مويا يأخذ شكلاً جديداً:

«الأمر ليس نزوة عابرة، ان غير المتوقع حصل وانا وقعت في حب رجل، لا يقبل برانت ولا يريد ان يرى فيه خيراً. هم يعتقدون ان جيرارد يشبه والده ويتصرف مثله. ولكنه ليس كذلك اذا عرفته جيداً. طبعاً اعرف ان عينيه تلعبان هنا وهناك، ولكنه صادق وصريح ليظهر ذلك ولا يخفيه مثل كثيرين اعرفهم. في كل حال هي ليست مشكلة لاني اعرف كيف امسك زمام الامور».

اذن مويا لم تكن تستعمل جيرارد مثلما كان هو يعتقد. ولكن ان كانت تحبه جداً فلماذا هو لا يعرف ذلك؟ سألتها:

«كيف تمسكين زمام الامور؟».

«الامر بسيط. هو ليس واثقاً من حبي. ولن يكون واثقاً ابداً حتى عندما نتزوج».

حلقت فيها فانيسا وقالت:

«هل تنوين الزواج منه؟».

«طبعاً أنوي الزواج. ربما سانتظر بعض الوقت، ولكنني ساصل به الى هذه النهاية، وسنواجه الجميع بالامر الواقع. ربما لن يكون زواجاً يحلم به والدي ولكن كل الاحتفالات الرسمية للزواج قد تجعل جيرارد يهرب كالارنب الخائف».

ولاحظت استغراب فانيسا التي قالت:

«ولكنك بالطبع لن تستطيعي ان تحتفظي بالسر سنة اضافية. ان كنت تنوين الزواج من جيرارد، اليس من العدل ان تخبري برانت الآن، وتحميه من جرح اكبر في المستقبل؟».

«انت تركزين كثيراً على قضية جرح برانت. انا لن اخبره لاني ان فعلت، سيجعل الامور هو وأبي صعبة جداً امامنا. ولا اريد ان يتعب جيرارد من التحدي ويقول في النهاية ان الامر لا يستحق كل هذا العناد. لأفترض ان ابي وبرانت سيجرحان ولكن صدّقيني اني اعرفهما جيداً، وطريقتي هي الوحيدة التي توصلني الى الزواج من جيرارد. من بعدها يقبلان بالأمر الواقع كما هو، فيفعلان الكثير من اجل سعادتي. ربما اكون انانية، فأنا لست من الاشخاص اللذين يضحون بأنفسهم. اريد جيرارد وسآخذه. اعرف اني سأجعله سعيداً، وهذا كل ما يهمني».

«ولكنك قبل مدة قلت لي انك تحبين برانت. لا بد انك تحملين له بعض العاطفة. انت مدينة له بالحقيقة يا مويا ولا يمكنك ان تجعليه يستمر في تصديق موضوع الزواج منك».

وقبل ان تتمكن مويا من الاجابة، فتح الباب ودخل الرجل الذي كانا تتحدثان عنه.

حلقت فانيسا بالرجل الطويل امامها، وجهها ممتقع

وتساءل في نفسها اذا كان سمع شيئاً. ولم تجرؤ النظر الى مويا وانتابها شعور ان مويا اكتشفت ما تحمله فانيسا من عاطفة لبرانت، ولم تهتم، كل ما تمنته ان يكون برانت جاهلاً للمناقشة التي دارت بينهما.

نظر برانت اليها ولاحظ ارتباكها. اغلق الباب خلفه وسأل:

«هل قطعت مجرى حديث او مشادة بينكما؟».

ولم تجبه اي منهما فقال:

«احتفظا باسراركما، لا بأس في ذلك».

وجدت فانيسا نفسها تقول بتردد:

«كنا. . . كنا لا نتوقع عودتك باكراً».

فاجاب:

«كلا. ولا انا كنت اتوقع توقعكم لي».

وجلس الى مكتبه يراجع الاوراق امامه ثم تناول الرسالة التي وضعتها فانيسا على مكتبه.

مويا تحركت منزعجة وقالت لفانيسا:

«احب ان اتكلم معك على انفراد».

ونظرت صوب برانت قائلة:

«هل تسمح ان غادرنا الغرفة لدقائق قليلة؟».

كان يقرأ الرسالة بامعان غاضباً ولما رفع رأسه قال بعينين يتطاير منهما الشرر:

«عليك ان تنتظري يا مويا. انا اريد التحدث مع فانيسا اولاً على انفراد».

وجدته جاداً. انسحبت بهدوء قائلة:

«حسناً، سانتظر في غرفة الجلوس».

مدّ برانت يده راميا الرسالة الى مكتب فانيسا. وقال:

«هل هذه فكرتك؟».

نظرت اليه من دون ان تفهم وتناولت الرسالة وراحت تقرأ حتى النهاية بامضاء: المعلمة جانيت بيرسون.

وشعرت بانهيار نفسي. الرسالة كانت مختصرة ولكن دقيقة جداً وواضحة. اعربت عن قرف وخيبة امل لضياع الوقت الكامل في تنظيم الزيارة لتلميذاتها الى رالينغز. تقول انها سألت التلميذات ان يكتبن ما شاهدن. وها هي نسخة مرفقة عما كتبته احداهن. ولما قرأت فانيسا ما كتبته الفتاة، وجدت نكات جيرارد عن التحف في كل سطر. سأل برانت:

«ما هذا؟».

نظرت اليه بشجاعة وقالت:

«الوقائع صحيحة. جيرارد كان يتصرف بفكاهة. ولا اظن ان ثمة ضرراً لأحد».

انتفخت عضلات وجهه وعنقه وقال:

«وماذا كان يعمل جيرارد في ذلك اليوم؟ هل نظمت البرنامج معه مسبقاً؟».

«نعم».

قالت كاذبة بغضب ومن دون اكتراث.

«وطبعاً نظمتا ذلك مسبقاً».

وسعت عيناه للمفاجأة وقال:

«انا لست في موضع للسخرية. ربما تجدين الامر كله مسلياً، ولكن اؤكد لك اني لا اراه كذلك اطلاقاً. انا فخور بتراث عائلة مالوري. هل تظنين اني ساعامل هذه السخافة بخفة؟».

«كلا. لا اظن ذلك. لا اظن انك تواجه اي شيء يعمله»

جيرارد بخفة. انت تبحث عن جرم تلبسه اياه انتقاماً لوالده الذي اساء معاملة عمتك؟».

كانت تتكلم بغضب ومن دون ان تكترث لردود فعله. عاطفتها المتأججة المكبوتة طيلة الاسبوع انفجرت في اتجاه آخر. تابعت تقول:

«لم تعط جيرارد فرصة ولا مرة ليثبت حسناته. انت قررت منذ البداية انه لا ينفع، وانت لا يمكن ان تكون على خطأ ابداً! أليس كذلك؟ كم انت قاس واهم، انك عادل!».

فجأة شعرت ببرانت قربها يأخذها بين ذراعيه ويعانقها في شدة ويتركها كالبلهاء ويغادر الغرفة.

مر بعض الوقت وفانيسا كالمشدوهة. اخيراً تحركت من الغرفة وسارت ببطء في القاعة الكبرى من دون ان تصادف احداً. وفي غرفة نومها شعرت انها في امان، تحاول ان تستفيق من مفاجأة برانت لها. تحركت نحو الخزانة وسحبت حقيبة الثياب وراحت تملأها بالثياب وباغراضها الخاصة. قررت انها لن تستطيع ان تواجه برانت بعد اليوم. هي سببت له فقدان اعصابه وهو لن يسامحها مطلقاً.

فكرت ان قطاراً في الخامسة يغادر المدينة نحو لندن. المهم ان تغادر القرية الى المدينة في اقصى سرعة. لا بد ان نيفيل سيستقبلها الى ان تجد مكاناً خاصاً بها.

اغلقت الحقيبة، تناولت معطفها من الخزانة وارتدته. ساعتها تشير الى الرابعة وخمس دقائق. نظرت الى غرفتها للمرة الاخيرة وسارت عبر الممرات.

باب غرفة المكتبة مقفل والقاعة صامتة. لم تر أحداً في طريقها الى الطبقة الارضية. دفعت الباب الكبير ليغلق خلفها

وسارت من دون ان تلتفت الى الوراء. مرة واحدة التفتت وهي في آخر منحنى. رأت القصر شاهقاً والسماء الملبدة فوقه، مثلما رأته اول مرة، الا انها لن تراه بعد اليوم.

كانت بدأت تمطر قليلاً عندما وصل الاوتوبيس الى الموقف حيث كانت تنتظر. ركبته وجلست في مقعد امامي.

«هذه تذكرتك يا آنسة».

قال المعاون ببشاشة، ثم أضاف:

«الطقس اصبح سيئاً أليس كذلك؟ اظن ان السماء ستمطر من الآن حتى عيد الميلاد».

حدقت فانيسا فيه بكآبة وتساءلت أين تراها تكون في الميلاد؟ التفتت الى الجهة الاخرى لترى نظرات امرأة تحدق فيها بفضول.

«انت السكرتيرة الجديدة في القصر الكبير».

قالت المرأة من دون تحفظ وسألت:

«هل انت في اجازة لبضعة ايام؟».

ترددت فانيسا ثم هزت رأسها بالايجاب. تمنت ان تكتفي جارتها بهذا القدر من الكلام. ولكن املها تضاءل عندما قامت المرأة وجلست في المقعد الى جانبها.

«انا صديقة للسيدة رودجرز. هي قالت لي هذا الصباح انك ملائمة جداً للعمل في القصر. ان افراد عائلة مالوري اطوارهم غريبة أليس كذلك؟».

ردّت فانيسا بقسوة:

«كلا، ليسوا كذلك».

ووسط ذهولها وجدت الدمع ينساب من عينيها. استدارت نحو النافذة واغمضت عينيها بشدة.

«حسناً».

قالت جارتها وانسحبت من جانب فانيسا لتعود الى مقعدها السابق مع شعور بالانهزام.

غرفة الانتظار في محطة المدينة كانت باردة ورطبة. جلست فانيسا على طرف احد المقاعد البعيد جداً عن الباب الرئيسي، وتمنت ان يكون قاطع التذاكر على خطأ عندما اخبرها ان ثمة ساعة تأخير. لم تكن ترغب في وقت يجعلها تفكر في تصرفها. كانت تريد فقط ان تصبح داخل القطار وتذهب خارج المنطقة. ربما تقبل عرض تيفيل بالعمل في الدكان وربما لا. لم تكن تعرف بعد ماذا ترغب ان تفعل.

ومن دون قصد وجدت نفسها تفكر في ما يمكن ان يكون برانت يفعل في هذه اللحظة. غيابها لا يمكن ان يكتشف حتى موعد العشاء. هل يكون نادماً على غيابها؟ ام يهز كتفيه ويلغيها من وجوده مع كامل الشهر الذي مر؟

لاحظت حركة على ممر الباب، واذ بالشخص الذي يستحوذ على تفكيرها يدلف الى قاعة المحطة.

«اعطني حقيبتك وتعالي معي».

قال برانت جازماً.

«كلا».

اعترضت في شدة.

تناول الحقيبة وذراعها وشدها لتقف على قدميها.

«لا تحاربيني يا فانيسا، اذا اقتضى الامر سأحملك خارجاً الى السيارة».

كانت تعلم انه قادر على تنفيذ تهديده، ففضلت ان تمشي مرفوعة الرأس امام ناس المحطة، على ان تبلغه في وقت لاحق

اصرارها على الرحيل.

وضع حقيبتها في المقعد الخلفي في سيارته السوداء الكبيرة واجلسها في المقعد الامامي وجلس هو خلف المقود وانطلق في صمت في اتجاه القرية. في منتصف الطريق استدار في طريق فرعية وتوقف الى جانب منحنى مهجور وقال:

«هنا لن يزعجنا احد».

اطفأ المحرك. ادار رأسه نحوها ثم شد وجهها نحوه لتنظر اليه وقال:

«فانيسا، قبل اي شيء آخر يجب ان اقول لك اني احبك واريدك ان تتزوجيني».

فوجئت فانيسا ووجدت نفسها جامدة لا تقوى على الرد. حدقت فيه ثم تمتمت.

«لا اظن انك تقصد ما تقول».

واضافت:

«ولكن ماذا عن مويا؟».

فقال:

«اذن انت متوهمة جداً... يا حبيبتي. اختلطت عليك الامور. انا اعرف مويا منذ كانت في الرابعة من عمرها. اشعر نحوها بما يشعر به اي اخ نحو شقيقته الصغرى المهضومة، وليس اكثر من ذلك».

واذ بفانيسا تتنفس في عمق وتشعر انها اصبحت في الاطار الصحيح وقالت.

«لا بد اني قفزت الى كل الاستنتاجات الخاطئة».

اجابها:

«لا شيء يهم الآن غير معرفتي بان مويا كانت على صواب

عندما اكتشفت رحيلك، فانيسا، هل صحيح انك هربت لانك تحبينني؟».

«نعم».

قالت بصوت خافت وصادق.

مدّ يده نحو وجهها، ناظراً البريق في عينيها، معانقاً اياها في الشكل الذي طالما حلمت فيه. ثم قال.

«شعرت اني احبك منذ ذلك اللقاء الاول في ذلك الفندق عندما قلت لي بغضب اني عدو للمرأة. اردت طيلة الوقت ان اثبت لك يوماً بعد يوم انك مخطئة ولكنك كنت دائماً تضعين حدوداً بيننا. في تلك الليلة التي حملتك فيها الى الطبقة الثانية كنت مشدودة مثل شريط قوس واعتقدت في تلك اللحظة انك لا تطيقين لمسي اياك».

اجابته بنعومة:

«ان توقي الى ان تحملني في الشكل الذي فعلت جعلني اخاف من ان تكتشف حقيقة شعوري نحوك».

«وهل ذلك كان السبب الذي حدا بك ان تجعليني اصدق انك مغرمة بجيرارد؟».

«آه، بشأن جيرارد، اريد ان اقول لك. . .».

«واذا كنت ستتهمينني في اني غير عادل، ربما اوافق معك في الوضع الحالي ولكن ليس عندي اي نية في مناقشة ابن عمي في هذه اللحظة. واذا كنت مشغولة الفكر على مويا انسي الامر. ان مويا تعرف تماماً ماذا تريد وماذا تفعل على الرغم من اني لا امنتها على اختيارها».

«هل كنت تعلم كل ذلك الوقت؟».

«قبل قليل من سفرها الى النمسا. لم اقل شيئاً لكليهما مخافة

ان تكون اية محاولة في التفريق بينهما تزيد من جاذبيته لها».

كانت تبتسم في رقة. احاط وجهها في يديه وسألها:

«فانيسا، انت متأكدة من حبك لي؟ اذ عندما ترتبطين بي لا مجال للعودة عن القرار. لن ادعك ترحلين طالما انا حي».

ردّت في رقة واصرار:

«انا لست متأكدة من شيء في حياتي مثل تأكدي من حبي لك يا برانت».

عانقها في حنان. ثم قال:«لنعد الى البيت الآن».

أدار المحرك وانطلق بالسيارة من جديد. امام القصر وقفت فانيسا للحظات تتأمله وتقول:

«كم احب هذا البيت».

شعرت بذراعه تحيط كتفيها واذ به يقول:

«فانيسا، اني انا الذي تريدين اليس كذلك؟ ليس فقط رالينغز؟».

لبرهة شعرت بقوة المحبوبة وتساءلت «القصر أم الرجل؟».

ألقت برأسها على كتفه وقالت:

«ولكن الرجل يحيا ويحبني فهل تجوز المقارنة؟».

حملها بين ذراعيه وقفز بها على السلالم. اعترضت ضاحكة وهي تقول:

«برانت لا يمكن ان تحملني هكذا، ماذا سيقول الخدم؟».

توقف قليلاً، نظر اليها وقال:

«سيقولون ان آخر عنقود عائلة مالوري اصطاد اجمل عروس! اهلاً بك في بيتك، فانيسا».